السقطة

LA CHUTE



السقطة

البير كامو

السقطة

نقلها الى العربية

انيس زكي حسن



« كان البعض يشعرون بالاهانة شعوراً فظيعاً جادا ، لانهم كانوا قد
اتخذوا نموذجاً من مثل هذه الشخصية اللااخلاقية التي تدعى –
بطـــل عصرنا – ولاحظ آخرون بذكاء ان المؤلف كان قد
صور نفسه ومعارفه ... ان بطل عصرنا ، أيها السادة ،
هو في الواقع صورة ، ولكنها ليست صورة فرد ،
وانمـــا هي مجموع شرور جيلنا كله ، في أكمل
تعبير عنه ... »

ليرمنتوف

هل لي ، يا سيدي ، ان اعرض عليك العون ، دون ان اكون متطفلاً ؟ اخشى انك لن تستطيع ان تعبر عما تريد للقرد الذي يتحكم في مصير هذا المكان . والواقع انه لا يتحدث غير الهولندية ، واذا لم تخولني بالتزام قضيتك فانه لن يخمن انك تريد شراب الجن . والآن ، بوسعي ان ارجو ان يكون قد فهمني ، فهزة رأسه لا بد ان تعني انه استسلم لرأيي . انــــه يخطو ، والحق انه يسرع بتأن وترو . انت محظوظ ، فلم يتأفف . لانه حين يرفض ان يخدم احداً لا يفعل شيئــاً غير ان يتأفف . ولذلك فلا احد يصر . والسيطرة على المزاج هي من مزايا الحيوانات الضخمة . سأنسحب الآن ، يا سيدي ، سعيداً ، لانني استطعت ان افيدك . اشكرك . كنت سأقبل لو لم اكن اخشى ان اضــــايقك . انت شديــد اللطف . حسناً ، سأحضر قدحي بجـــانب قدحك .

انت على حق . ان صمته لهائل الصخب ، انه صمت الغابة البدائية الحافلة بالتهديد . يدهشني احيانــــاً عناده في الحط من شأن اللغات المتحضرة . ان عمله يتألف من خدمة البحارة من مختلف الجنسيات ، في هذه الحانة في امستردام ، الحــــانة التي يسميها – لا احــد يدري لمــاذا – مدينة المكسيك . ومع كل هذه الواجبـــات ، افلا تظن انه يُخشى ان يكون جهله غباء ؟ تصور انسان (كرومانيون) محبوساً في

برج بابل ! لا شك في انه سيشعر بالضيق . ومع ذلك ، فهذا لا يدرك شيئاً عن منفاه ، وانما يستمر في دنياه المعتادة دون ان يضايقه شيء . ومن العبارات النادرة التي سمعتها منه ، بين عباراته القليلة جداً ، تلك التي تقول لك ان تأخذ الشيء او تتركه . فماذا كان عليك ان تأخذ او تترك ؟ صديقنا نفسه ، بلا شك . واعترف بان مثل هذه المخلوقات تجتذبني . فكل من يهمه البحث في امر الانسان ، سواء كان ذلك حرفته او هوايته ، ليشعر بالحنين الى البشر البدائيين ، الى القرود ، فهي لا تملك اية دوافع غير مباشرة ، على الاقل .

ولكن مضيفنا ، في الواقع ، يملك بعضها ، رغم انه يكرهها في اعماقه . وكنتيجة لعدم فهمه ما يقال في حضوره ، اتخذ لنفسه ميولاً شكوكية . وهذا يفسر ما يلوح عليه من كبرياء حساسة ، فكأنه كان على الاقل يشك بأنه لا بد ان يكون هنالك شيء في غير محله بين البشر . وهذا الميل لا يسهل بحث اي شيء معه مما لا يخص عمله . لاحظ ، مثلاً ، على الجدار الخلفي ، فوق رأسه ، ذلك المستطيل الخالي الذي يدل على مكان صورة انزلت من موضعها . كانت هنالك صورة حقاً ، وكانت صورة مثيرة للاهتمام ، من الاعمال الرائعة الحقيقية . حسناً ، لقد كنت حاضراً حين استلمها صاحب المكان وكذلك حين تخلى عنها . ولقد فعل ذلك ، في الحالتين ، بنفس الشك ، وبعد اسابيع من التفكير . وانت ، بهذا الخصوص لا بد ان تقر بأن المجتمع قد افسد البساطة الصريحة في طبيعته .

تذكر انني لست احكم عليه هنا . واعتقد ان هنالك مبرراً لشكه ، وعلي ان اشاركه اياه ، اذا كانت طبيعتي المفتوحة للاخرين ، كما ترى ،

لا تتعارض مع ذلك . انا ثرثار ، بئس ذلك ، واصنع الاصدقاء بسهولة . وبالرغم من انني اعرف كيف الزم حدودي ، الا انني اغتنم اية فرصة ، كل الفرص . وحين كنت اعيش في فرنسا كنت اسعى الى توثيق اواصر الصحبة مع كل شخص ذكي كنت اقابله . فاذا كان ذلك حماقة ... آه ، اراك تبتسم لانني اقول — اذا — وانا اعترف بضعفي نحو هذه النقطة ، وبميلي الى الكلام المنمق بصورة عامة . صدقني اذا قلت لك انني انتقد هذا الضعف في نفسي . انني ادرك ان التعلق بارتداء الثياب الداخلية الحريرية لا يعني بالضرورة ان قدمي المرء قذرتان . ومع ذلك فان الاسلوب ، كالحرير الخالص ، غالباً ما يخفي الاكزيما . وانا اعزي نفسي بان اقول لها بعد كل ذلك ان اولئك الذين يقتلون اللغة ليسوا انفسهم بانقياء . بالطبع ، لنشرب مزيداً من الجن .

هل سنبقى طويلاً في امستردام ؟ انها مدينة جميلة ، اليس كذلك ؟ هنالك صفة لم اسمعها لوقت ما ، منذ ان غادرت باريس في الواقع ، قبل سنوات . ولكن للقلب ذاكرته ، ولم انس شيئاً عن عاصمتنا الجميلة ، ولا عن ارصفتها . ان باريس هي سراب العين بحق ، انها مسرح رائع ترى في مشهده اربعة ملايين من الاشباح . خمسة ملايين تقريباً في الاحصاء الاخير ؟ كيف ، لا بد انهم تضاعفوا . ولكن ذلك لا يدهشني ، فقد لاح لي دائماً ان لابناء وطني ميلين : اولهما نحو الافكار ، والآخر نحو الجماع ، دون ان يكون لذلك عذر او سبب كما يقولون . ومع ذلك ، دعنا لا نتهمهم ، فليسوا الوحيدين ، وانما تسير اوروبا كلها في هذا الركب . وانني لافكر احياناً بما سيقوله عنا مؤرخو المستقبل . فعباره واحدة تكفي لوصف الانسان الحديث : كان

يجامع ويقرأ الصحف . وبعد هذا التعريف القوي لن يكون ثمة مجال لمزيد من البحث ، اذا جاز لي ان اقول ذلك .

ولكن ، ليس الهولنديون كذلك . فهم اقل تحضراً ! لديهم الوقت – فقط انظر اليهم . ماذا يفعلون ؟ حسناً ، هؤلاء السادة الجالسون هناك يقتاتون على جهود اولئك السيدات الجالسات هنالك . وكلهم ، بالاضافة الى ذلك ، الذكور والاناث ، مخلوقات من الطبقة المتوسطة جداً ، وقد جاؤوا الى هنا ، كالعادة ، بدافع الهوس الاسطوري او الحماقة ، بكثير جداً ، او قليل جداً ، من الخيال ، باختصار . وبين حين وآخر يستمتع هؤلاء السادة بالعبث بالسكاكين او المسدسات ، ولكنهم لا يصلون الى حد التفكير بالاهتمام بذلك ، وانما يؤدي بهم الدور الذي يلعبونه الى ذلك ، وهذا هو كل ما في الامر . وهم يموتون رعباً بينما هم يطلقون الرصاص . ومع ذلك فانني اجدهم اكثر اخلاقية من الآخرين ، اولئك الذين يقتلون في صميم العائلة عبر الاحتكاك . ألم تلاحظ ان مجتمعنا منظم لهذا النوع من القتل ؟ لقد سمعت طبعاً عن تلك الاسماك الصغيرة في انهار البرازيل ، التي تهاجم السابح الساهي بالآلاف وتزيله من الوجود بعضاتها الصغيرة السريعة في دقائق ، تاركة هيكلاً عظمياً عادياً ؟ حسناً ، مجتمعهم هو كذلك : « هل تريد حياة جيدة نظيفة كالآخرين ؟ » وانت تقول : اجل ، طبعاً . وكيف يستطيع احد ان يقول : كلا ؟ « حسناً ، ستهلك . هوذا عمل ، وعائلة ، وفعاليات منظمة للاستمتاع . » وتهاجم الاسنان الصغيرة اللحم ، حتى العظام . ولكنني لست عادلاً ، لانني يجب الا اقول : مجتمعهم . انه مجتمعنا نحن ، وهي مسألة : من الذي سيُهلك الآخر ؟

هوذا شرابنا اخيراً . نخب سعادتك . اجل ، لقد فتح القرد فمه ليدعوني دكتوراً ، وفي هذه البلدان تجد الجميع دكاترة او اساتذة . وهم يحبون اظهار الاحترام ، بدافع اللطف ، وبدافع التواضع . وليست وليست الكراهية بالعادة الاجتماعية بينهم ، على الاقل . ثم انني لست دكتوراً . لقد كنت محامياً ، اذا كنت تريد ان تعرف ذلك ، قبل ان احضر الى هنا . اما الآن ، فأنا قاض تائب .

ولكن ، اسمح لي ان اقدم لك نفسي : جان بابتيست كلامانس[1] ، في خدمتك . سرني ان اعرفك . انت رجل اعمال ، طبعاً ؟ نوعاً ما ؟ جواب بديع ! وعادل ايضاً ، فلسنا في جميع الاشياء غير « نوعاً ما » . اسمح لي الآن ان العب دور البوليس السري . انت في مثل عمري نوعاً ما . وفيك ملامح غرور رجل الاعمال الذي هو في الاربعين من العمر الذي كان قد رأى كل شيء نوعاً ما . وانت حسن الهندام نوعاً ما ، اي كبقية الناس في بلادنا ، ويداك ناعمتان . فأنت بورجوازي نوعاً ما ! ولكنك بورجوازي مثقف ! وابتسامك عند استخدام كلمة « اذا » الشرطية ، في الواقع ، يثبت انك مثقف ضعف ذلك ، لانك تدركها اولاً ، ولانك تشعر بالسمو عليها ، ثانياً . واخيراً فانا امتعك ، وهذا يعني ، دون ان يكون في الامر غرور ، انك مفتوح الذهن . ولهذا فانت نوعاً ما ... ولكن لا اهمية لذلك . المهن تلذ لي اكثر مما تفعل الطوائف . اسمح لي ان اسألك سؤالين ، ولا تجب اذا كنت ستعتبرهما غير حصيفين . الديك اية ممتلكات ؟ البعض ؟ هذا

---

(١) : ترجمة الاسم هي : يوحنا المعمدان ، ومن الواضح ان كامو يتعمد ذلك . — المترجم —

حسن . هل شاركت الفقراء فيها ؟ كلا ؟ فانت اذن مـا ادعوه انا : كافر بالقيامة . واذا لم تكن قد قرأت الكتاب المقدس فانني اقر بان ذلك لن يكون مفهوماً لديك . ولكن ، اتفهم ذلك ؟ انت تعرف الكتاب المقدس اذن ؟ حقاً انك لتلذ لي .

اما بالنسبة لي ... حسناً ، احكم لنفسك . فبقامتي واكتافي وهذا الوجه الذي طالما قيل لي انه يلوح خجولاً ، ألوح كلاعب كرة الرجبي ، اليس كذلك ؟ اما اذا حكمت علي وفقاً لحديثي فلا بد ان اوصف ببعض البراعة . فربما كان البعير الذي اتاح الشعر لمعطفي مصابـاً بمرض جلدي ، ولكن اظافري نظيفة ، وانا ايضاً شكوكي ، ومع ذلك فانني اثق فيك بدون تحفظ ، فقط على اساس مـــلامحك . واخيراً ، فعلى الرغم من انني احسن التصرف ، واتحدث برقة ، الا انني ارتاد حانات البحارة في الزيديك . هيـا ، لا تمض في العناد ، فحرفتي مزدوجة ، وهذا هو كل ما في الامر . كالكائن البشري . لقد اخبرتك الآن ، فانا قاض تائب . هنالك شيء واحد فقط بسيط في مسألتي : انني لا املك اي شيء . اجل ، لقد كنت غنياً ، كلا ، فـلم اشارك الفقراء في ثروتي فماذا يثبت هذا ؟ وانا ايضاً لم اكن اؤمن بالقيامة ... أوه ، اتسمع[٤] اصوات النفير في الميناء وهي تنذر بالضباب ؟ سيكون هنـالك ضباب هذه الليلة عند الزويدرزي .

أمزمع انت على الذهاب ؟ سامحني لانني اخرتك . .كلا ، ارجوك ، لن ادعك تدفع . انني اشعر وكأنني في بيتي ، في حانة مدينة المكسيك هذه ، وقد سرني على الاخص ان استقبلك هنا . سأكون هنـــا غداً بالتأكيد ، كعادتي في كل مساء ، ويسرني ان اقبـل دعوتك . طريق

عودتك ؟.. حسناً ، ولكن ، اذا لم يكن لديك اي مانع فان اسهل الامور بالنسبة لي هو ان اصحبك الى المينـــاء ، ومن ثم فاذا سرت في الحي اليهودي فـــانك ستشاهد تلك الشوارع المشجرة الجميلة التي تخطر فيها الحافلات الطـافحة بالزهور والصخب ، وفندقك هو في احد تلك الشوارع ، واسمه الدنمارك . انت اولاً ، ارجوك . انني اعيش في ذلك الحي ، واستطيع ان اكافح ميلي الطبيعي الذي يدفعني الى مرافقـــة احداهن . وحين ارى وجهـــاً جديداً فـان شيئاً في نفسي ينذرني : « ببطء ! خطر ! » وحتى حين يكون الاغراء على اشده ، اكون محترساً .

اتعرف انه قد حدث في قريتي الصغيرة اثناء حملة انتقامية ان ضابطاً المانيا سأل سيدة عجوزاً بكل لطف ان تختار احد ولديهـا ليتم اطلاق الرصاص عليه كبديل ؟ تختار ! — هل في وسعك ان تتصور ذلك ؟ هذا ؟ كلا ، ذاك . وتراه يذهب . دعنـــا لا نستمر في الحديث عن ذلك ، ولكن ، صدقني يا سيدي ان ايـة دهشة يمكن ان تكون متوقعة . كنت اعرف قلباً نقياً كان يرفض الشك . وكان مسالماً متعلقاً بالحرية ، وكان يحب البشريـــة كلها ، وكذلك كان يمنح الحيوان نفس الحب . كان شخصاً غير اعتيادي بالتأكيد . حسناً . ففي اثناء الحروب الدينية الاخيرة في اوروبا عـاد الى الريف متقاعداً وكتب على بابه : « مهما كان المكان الذي اتيت منه ، تعال وانت على الرحب والسعة . » فمن الذي استجاب لتلك الدعوة النبيلة ؟ رجال المقاومة ، الذين احتلوا البيت وبقروا أمعاء صاحبه .

أوه المعذرة يا سيدتي ! ولكنها لم تفهم كلمة من ذلك على كل حال .

كل هؤلاء الناس ، ها ؟ خارج بيوتهم في وقت متأخر بالرغم من هذا المطر الذي لم ينقطع خـــلال ايام . هنالك شراب الجن لحسن الحظ ، بريق النور الوحيد في هذا الظلام . أتشعر بالنور الذهبي النحاسي الذي يضيئه فيك ؟ انني احب التمشي في المدينة مساء مع دفء الجن . انني اسير ليالي باكملها ، واحلم او اتحدث مع نفسي بدون نهـاية . اجل ، مثل هذا المساء – واخشى ان اصدع رأسك قليـلاً . اشكرك . انك شديد اللطف . ولكنه الفيض ، فحالمـــا افتح فمي تبدأ العبـــارات بالتدفق . ثم ان هذا البلد يلهمني . انني احب هؤلاء الناس الذين يملأون الارصفة الجـــانبية ، محصورين في فراغ صغير بين البيوت والقنوات ، يعزلهم الضباب والبقـاع الباردة والبحر المتبخر كقطعة الغسيل المبللة . انني اميل اليهم ، لانهم مزدوجون . انهم هنا وفي مكان آخر .

اجل حقا ، فعند سماعك خطواتهم الثقيـلة على الرصيف الرطب ، ورؤيتهم وهم يتحركون بصعوبة بين دكاكينهم المملوءة بالاسمـاك البحرية اللألأة والجواهر الملونة ، بلون اوراق الاشجار الذابلة ، تظن انهم هنا هذا المساء . انت كالاخرين ، تعتبر هؤلاء الناس الطيبين قبيلة من النقابيين والتجار الذين يحصون نقودهم الذهبية مع فرصهم في الحصول على الحياة الخالدة ، والذين تتألف غنائيتهم الوحيدة من تـــلقي بعض الحصص في التشريح ، بدون ان يخلعوا قبعاتهم عريضة الحافـات ! انت مخطىء . انهم يسيرون في الطريق معنا ، كن واثقاً ، ولـــكن انظر اين هي رؤوسهم : في ذلك الضباب المركب من النيون والجن والعطر المتدفق من لوحات الدكاكين فوقهم . هولندا هي حلم يا سيدي ، حلم من الذهب والدخان – اشد دخانا في النهار وبريقاً في الليل . وفي الليـل والنهار

يعيش في ذلـك الحلم كثيرون من هؤلاء ممن يشبهون لوهنغرن ، راكبين بصورة حالمة دراجاتهم السوداء ذات العوارض العالية ، كاغاني الجنائز ، سائرين دائماً عبر الارض كلهـا ، حول البحار ، على طول القنوات . رؤوسهم في سحاباتهم التي هي بلون النحاس ، يحلمون وتسير دراجاتهم في دوائر ، يصـلون ، سائرين في نومهم في بخار الضباب اللألأ ، ولم يعودوا موجودين هنا . لقد ذهبوا الاف الاميال بعيدا ، نحو جاوه ، الجزيرة السعيدة . انهم يصلون لآلهة اندونيسيا العابسة التي زينوا بهـا جميع نوافذ دكاكينهم والتي تتطاير الان فوقنا بلا هدف قبل ان تهبط ، كالقردة البديعة ، فوق اللوحات والسطوح البـارزة لتذكر اولئـك المستوطنين النـازحين الذين يحنون الى بلادهم بان هولندا ليست اوروبا التجار فقط ، وانما البحر ، البحر الذي يؤدي الى سيبانغو والجزر التي يموت فيها البشر مجانين سعداء .

ولكنني اطلق العنان لنفسي . ! انني اترافع في قضية . ! المعذرة . العادة يا سيدي ، والاهتمام ، وكذلك رغبتي في ان اجعلك تفهم هذه المدينة تماماً ، وقلب الاشياء ! لاننا في قلب الاشياء هنا . هل لاحظت ان قنوات امستردام المركزيـة تشبه ساحات الجحيم ؟ جحيم الطبقة المتوسطة ، طبعا ، التي تعيش فيهـا الاحلام السيئة . وحين يأتي احد من الخـارج ، وبينما يسير تدريجياً عبر هذه الساحات ، تصبح الحياة ، وبالتالي جرائمها ، اشد كثافة وظلاما . ونحن الان في الساحة الاخيرة ، ساحة الـ ... آه ، اتعرف ذلك ؟ بحق السماء ، يصعب عليّ تصنيف نوعك . ولكنك تفهم اذن لماذا استطيع ان اقول ان مركز الاشياء هو هنا رغم اننا نقف على حافة القارة . والحساس يفهم مثل هذه الغرائب .

وعلى اية حال ، فان قراء الصحف والمجامعين لا يستطيعون ان يذهبوا ابعد . انهم يأتون من زوايا اوروبا الاربع ويقفون في مواجهة البحر الداخلي ، على الساحل الكئيب . وهم يصغون الى النفير المنذر بالضباب ، ويحاولون عبثاً ان يميزوا اشباح القوارب في الضباب ، ثم يدبرون ظهورهم للقنوات ويعودون الى بيوتهم في المطر ويبردون حتى العظام ، ويحضرون ويسألون بكل اللغات طالبين شراب الجن في حانة مدينة المكسيك . وهنالك انتظرهم .

حتى الغد ، اذن ، يا سيـــدي وابن وطني العزيز . كلا ، ستميز طريقك بسهولة الان : وساتركك قرب هذا الجسر . انني لا اعبر جسراً في الليل ، وتلك هي نتيجة عهد قطعته على نفسي . افترض ، مثلا ، ان احداً سيقفز في الماء . احد امرين – امـا ان تفعل مثله لتخرجه وفي الطقس البارد ، تجازف مجازفة كبيرة ، أو ان تتخلى عنه وتتركه هناك ، ومثل هذه الحالات تترك المرء يتألم ألماً غريباً في بعض الاحيان ، طاب مساؤك . ماذا ؟ تلك السيدات خلف تلـك النوافذ ؟ حلم ، يا سيدي ، حلم رخيص ، سفرة الى الجزر الهندية ! انهن يعطرن انفسهن بالفلفل . فانت تدخل ، ويسحبن الستـائر ، وتبدأ بالابحار . وتهبط الآلهة على الاجساد العـــارية وتنطلق الجزر مع التيـار أرواحاً ضائعة يتوجها شعر النخيل الذي تموجه وتعابثه الرياح . جرب .

ما هو القاضي التائب ؟ – آه ، لقد خادعتك بذلك العمل . ولم اكن اضمر شراً ، صدقني ، وانا استطيع ان اعبر عما اريد بوضوح وهذا نوعاً ما ، يتعلق بواجباتي الرسمية ايضاً . ولكن علي اولاً ان امهد بمجموعة معينة من الحقائق التي ستساعدك في فهم قصتي .

كنت قبل بضع سنوات محامياً في باريس ، بل كنت محامياً مشهوراً . ولم اخبرك باسمي الحقيقي طبعاً . ولدي اختصاص في القضايا النبيلة . الارامل والأيتام – كما يقول المثل – ولست اعرف لماذا ، لان هنالك ارامل سيئات وارامل شريرات . ومع ذلك فقد كان يكفيني ان اضفي اقل ما يمكن من عطر الضحية على موكلي لافوز بالقضية واصول واجول ، واية صولة ! عاصفة حقيقية ! كان قلبي في كمي . كنت ستعتقد بان العدالة كانت تنام معي كل ليلة . وانا واثق من انك كنت ستعجب بصدق لهجتي وتوافق انفعالاتي ، والاقناع ، والحرارة والاستياء المكظوم في خطبي امام المحكمة . وكانت الطبيعة بجانبي ، بالنسبة لشكل جسمي ، ولهذا فقد كنت اتخذ الموقف النبيل بدون اية صعوبة . وبالاضافة الى ذلك ، كان هنالك شعوران صادقان يتيحان لي ان احلق عالياً ، رضائي عن نفسي لانني كنت اقف في الجانب المحق من القضاء ، واحتقاري الفطري للقضاة بصورة عامة ، ولم يكن ذلك الاحتقار بعد كل ذلك

فطرياً تماماً ، فانا اعرف الان انه قد كانت له اسبابه ، ولكن نظري الى الامر من الخارج يجعله يلوح انفعالاً صادقاً ، ولا يمكنني ان انكر انه في هذه اللحظة على الاقل يجب ان يكون لدينا قضاة ، اليس كذلك ؟ وعلى اية حال ، فـاني لم استطع ان افهم كيف يكون في وسع احد ان يتقدم لاداء تلـــك المهام . وقد تقبلت الامر لانني رأيته ، ولكن ذلك لم يكن ليختلف عن قبولي لوجود الجراد . ولكن هنالك اختلافاً : وهو ان الغزو الذي تقوم به اسراب تلـــك الحشرات لم ينفعني بفلس واحد ، في حين انني كنت اكسب عيشي بالحديث مـــع قوم كنت احتقرهم .

بيد انني كنت اقف في الجـــانب المحق ، وكان هذا كافياً ليرضي ضميري ، فالشعور بالقانون ، والرضى بكوني محقـــاً ، وغبطتي بالمكانة الشخصية ، يا سيدي العزيز ، دوافـع قوية تجعلنا نستمر في الصعود او التقدم ، ومن الناحية الاخرى ، فانك اذا جردت البشر منها حولتهم الى كلاب مزمجرة بزَبَد الغضب . كم من الجرائم ارتكبت ، فقط لان مرتكبيها لم يحتملوا كونهم مخطئين ! كنت اعرف صاحب مصنع كانت لديه زوجة كاملة ، وكانت موضع اعجاب الجميـع ، ومع ذلك خدعها ، والحق ان ذلك الرجل كان يشتاط غضباً لانه كان مخطئاً ، لانه لم يكن يستطيـع ان ينال ، او يمنح ، شهادة الفضيلة ، وكلـما كثرت الفضائل في زوجته زاد استياؤه ، واخيراً لم يعد في وسعه ان يحتمل العيش مع الخطأ ، فماذا تظنه فعل ؟ هل تخلى عن خداعه لهـا ؟ كلا ، ابداً . لقد قتلها . وكان هذا هو مفتاح علاقتي به .

كان موقفي محسوداً اكثر من ذلك . فلم اكن بعيداً عن المجـــازفة

بالانضمام الى معسكر الجريمة وحسب ، (وعلى الاخص ، لم يكن في وسعي ان اقتل زوجتي لانني كنت اعزب) وانما كنت ادافع عنهم ايضاً بشرط ان يكونوا قتلة طيبين ، كما ان آخرين هم متوحشون طيبون . بل ان الطريقة التي كنت امارس بها دفاعي كانت تهبني قناعة عظيمة . وكنت فوق الاتهام في حياتي العملية ، فلم اقبل رشوة . ولا حاجة بي الى قول ذلك ، ولم اتنازل فأقبل اجراءات غير واضحة . ثم انني – وهذا ليس نادراً – لم اتملق اي صحفي لاكسبه الى جانبي ، ولا اي موظف مدني من اولئك الذين قد تنفعني صداقتهم . وقد كنت محظوظاً ايضاً بحيث قُدم لي وسام الشرف مرتين او ثلاثاً ، واستطعت ان ارفضه بكبرياء حصيفة كنت اجد فيها الجزاء الذي ارتضيته لنفسي . واخيراً ، لم آخذ من الفقراء اية اتعاب ، ولم افاخر بذلك . لا تظن ابداً ، يا سيدي العزيز ، انني افاخر . فأنا لا ارى في ذلك موضعاً للفخر . ان الجشع الذي يحل في مجتمعنا محل الطموح كان يضحكني دائماً . كنت اصبو الى ما هو اسمى من ذلك . وسترى ان التعبير دقيق في قضيتي .

ولكنك تستطيع ان تتصور قناعتي . لقد استمتعت بالتعبير عن طبيعتي على اكمل وجه ، ونحن جميعاً نعرف ان السعادة تكمن في ذلك رغم اننا ، لكي يواسي بعضنا بعضاً ، نتظاهر احياناً بتوجيه اصبع الاتهام الى مثل هذه المتع باعتبارها انانية . كنت استمتع على الاقل بذلك الجانب من طبيعتي الذي كان ينفعل انفعالاً صحيحاً مناسباً تجاه الارملة واليتيم ، بحيث انه صار بالتالي يتحكم في حياتي كلها بالممارسة . كنت مثلاً احب ان اساعد العميان على عبور الشارع . وكنت كلما

رأيت عصاً تهتز مترددة على جانب الرصيف ، اهرع اليهـــا ، وكنت احياناً اسبق يداً اخرى غير يدي ، تمتـد بالعون ، بثانية واحدة ، واختطف الاعمى ولا ادع عناية اخرى تشمله ، وآخذه بلطف ، ولكن بقوة ، عبر الشارع ، بين عوارض المرور ، نحو حمى الجانب الآخر من الرصيف ، حيث نفترق وفينا عاطفة مشتركة . وبالطريقة نفسها ، كنت استمتع باسداء العون في الشارع ، واشعال السكائر للآخرين والمساهمة في دفع العربات اليدوية الثقيلة او دفع السيارات العاطبة او شراء صحيفة من فتاة جيش الخلاص ، او الزهور من البائعة العجوز ، رغـــم انني كنت اعرف انها سرقتهـــا من مقبرة مونبارناس . وكنت اميل ايضاً – ويصعب علي قول ذلك – الى اعطاء الصدقات . لقد اقر صـديق مسيحي جـــداً من اصدقائي بأن شعور المرء الاول حين يرى شحـاذاً يقترب من بيته هو شعور سار . حسناً ، لقد كان ذلك الشعور أسوأ من ذلك بالنسبة لي ، فقد كنت اغتبط ، ولكن دعنـــا لا نستمر في بحث ذلك .

دعني اتحدث عن مجاملاتي . لقد كانت مشهورة لا يمكن ان يشك فيها احد . والحق ان الاسلوب الاجتماعي الطيب كان يتيح لي غبطـة كبيرة ، فلو استطعت في بعض المناسبات في الصباح ان اقـدم مقعدي في الباص او النفق لشخص كان واضحاً عليه انه يستحقه ، او ألتقط شيئاً اسقطته سيدة عجوز وأعيده اليها مـــع ابتسامة ، كنت اعرف كيف اوجهها ، او اتنازل عن التاكسي لشخص آخر على عجـــل من امره اكثر مني ، فان ذلك الصباح يكون فياضاً بالسعادة . بل انني كنت اغتبط ، ويجب علي ان اقر بذلك ، حين كانت النقليات تتوقف

في بعض الايام بسبب الاضراب ، بشحن سيارتي من مواقف الباصات بزملائي المواطنين سيئي الحظ الذين لا يستطيعون ان يعودوا الى بيوتهم . وكنت حين اتنازل عن مقعدي في المسرح لأتيح لاثنين ان يجلسا معاً ، او احمل حقائب فتاة الى القطار – كانت هذه كلها من الافعـــال التي كنت اقوم بها اكثر من غيري لأنني كنت اهتم اهتماماً اكبر من اهتمامهم بذلك ، فأجد الفرص واستطيع اكثر من الآخرين ان استمتع بذلك .

وبالنتيجة ، كانوا يعتبرونني كريماً ، وكذلك كنت . لقـد كنت امنح الكثير ، في العلن وفي السر . وبدلاً من ان اتألم حين كنت امنح شيئاً او مالاً ، كنت اجد في ذلك متعة دائمـة ، متعة تشوبها كآبة حين افكر في لاجدوى تلك الهدايا ، وفي الجحود الذي قد يتبع ذلك . وكنت اجد في الاعطاء متعة تجعلني اكره ان اجد نفسي مرة مضطراً الى ذلك الاعطاء . فقد كان الاستحقاق في الامور المـــالية يضايقني مضايقة قـــاتلة . وكنت انصاع الى ذلك بخشونة . كنت اريد ان اكون سيد عطائي .

هذه امور صغيرة ، ولكنها ستساعدك على فهم الغبطة المستمرة التي كنت امارسها في حياتي ، وخاصة في عملي . فأن تستوقفَك في ممر احدى المحاكم زوجة متهم تترافع عنه بدافع العـــدالة او الشفقة فقط – اعني بدون عوض – وان تسمع همساتها وهي تقول انه ليس هنالك شيء ، كلا ، لا شيء يمكن ان يعوضك عما فعلت من اجلها ، وان تجيبها قائلاً ان ذلك كان طبيعياً جـداً ، وان اي شخص كان سيفعل اكثر من ذلك ، بل ان تقدم عوناً مالياً لمواجهة الايام السيئة المقبلة ، ثم ، لكي توقف تدفق العواطف وتجعلهـا تلوح معقولة محتفظه بقوتهـــا

– تقبل يد المرأة البائسة وتمضي في طريقك – صدقني يا سيدي العزيز ، ان هذا يعني انجاز اكثر من مجرد المطامح العادية التي يرنو اليها الاشخاص العاديون ، ويعني السمو الى القمة العالية حيث الفضيلة هي الجزاء الوحيد .

دعنا نتأمل في تلك الاعالي ، وانت الآن تفهم ما كنت اعنيه بالحديث عن السمو الى الاعالي . لقد كنت اتحدث ، هكذا ، عن تلك القمم السامية ، الاماكن الوحيدة التي يمكنني ان اعيش فيها . اجل ، لم اكن اشعر بالراحة الا بالاماكن السامقة ، وحتى في تفاصيل الحياة اليومية كنت في حاجة الى الشعور بالسمو . وكنت افضل الباص على النفق والعربات المفتوحة على سيارات التاكسي والشرفات على الاماكن المغلقة ، وكنت شديد الحماسة لطائرات الرياضة التي يبرز منها الرأس في الفضاء ، واما في السفن فكنت ابداً اتمشى على الرصيف العالي . واما في الجبال فكنت اهرب من الوديان العميقة الى الممرات الجبلية والهضاب ، وكنت ، على الاقل ، رجل القمم الجرداء . ولو كان القدر قد اضطرني الى الاختيار بين العمل في زاوية النساج ، او العمل فوق السطوح ، فلا تقلق ، لانني كنت ساختار السطوح ، وكنت ساعتاد على ذلك الاغماء اللذيذ ! كانت اوعية الفحم ومخازن السفن والانفاق والكهوف والحفر كريهة بالنسبة لي . بل انني صرت اكره علماء الكهوف الذين يجرؤون على ملء الصفحات الاولى في صحفنا والذين كانت كتاباتهم تثير غثياني . ان بذل الجهد للوصول الى المتعة على عمق ثمانمائة قدم ، والمجازفة بان يعتصر رأس المرء في قمع ارضي ضيق او السيفون كما يسميه اولئك الحمقى ! – لاح لي متعة اولئك الذين

يتميزون بالانحراف او الذين اصابتهم صدمة نفسية . بل ان في ذلك شيئاً من الاجرام ايضاً .

ومن الناحية الاخرى ، فان شرفة طبيعية على ارتفاع الف وخمسمائة قدم فوق البحر ، غارقة في نور الشمس ، كانت المكان الذي يمكنني ان اتنفس فيه بحرية ، خاصة اذا كنت وحيداً . فوق مستوى النمل البشري . وكنت استطيع ان افهم لماذا كانت الطقوس والمواعظ الحاسمة واعاجيب النار ومعجزاتها تقام في الاعالي التي يمكن بلوغها . واعتقد انه لم يسبق لاحد ان غرق في تأملاته في قبو او زنزانة سجن (ما لم تكن الزنزانة في برج يطل على منظر واسع) ، لان المرء في مثل هذه الاماكن يتخذ شكلها . وكان في وسعي ان افهم ذلك الذي يظفر بالمكانة المقدسة ويتخلى عنها لان محرابه ، بدلاً من ان يطل على منظر طبيعي واسع كما كان يتوقع ، انما كان يواجه الجدار . كن واثقاً من انه بقدر ما كان الامر يتعلق بي ، لم ادع نفسي تستقر في مكان واحد . ففي كل ساعة من النهار ، سواء في داخل نفسي او بين الآخرين ، كنت اصبو الى الاعالي واوقد النيران الرائعة فتستقبلني تحية هنيئة . وهكذا ، كنت على الاقل استمتع بالحياة وكذلك بروعتي .

وكان عملي يرضي في نفسي نزوعها هذا نحو الاعالي . وقد جردني من كل شعور بالمرارة نحو جاري الذي كنت انعم عليه دائماً ، بدون ان اكون يوماً واحداً مديناً له بشيء . لقد رفعني ذلك فوق القاضي الذي كنت اقاضيه بدوري ، وفوق المتهم الذي كنت اضطره الى عرفان الجميل . تأمل في ذلك ، يا سيدي العزيز ، لقد كنت اعيش حراً من اية مسؤولية ، ولم يكن هنالك اي حكم متعلق بي ، ولم اكن في قاعة

المحكمة وانما في مكان ما في الاعالي ، كتلك الآلهة التي تحضر من وقت لآخر ، لتحول شكل الامور وتعطيها معناها . ثم ان العيش في الاعالي ما يزال الطريقة الوحيدة التي يراك بها ويحييك اكبر عدد .

والى جانب ذلك ، فان بعض قتلتي الطيبين كانوا قد قتلوا مطيعين الشعور نفسه . ولا شك في ان قراءة الصحف بعد ذلك في الحالة المؤسفة التي يكونون فيها حينئذ ، تتيح لهم تعويضاً غير لطيف . وكالكثيرين من البشر ، لم يعد في وسعهم ان يحتملوا كونهم نكرات ، وقد ساهم هذا الضيق في دفعهم الى تطرف سيء الحظ . وللوصول الى السمعة ، يكفي المرء ان يقتل بوابه ، ومن الامور المؤسفة انها سمعة لا تعيش طويلاً ، فهنالك عدد كبير من البوابين الذين يستحقون القتل وينالون طعنة السكين فعلاً . والجريمة تحتكر العناوين الاولى في الصحف دائماً . ولكن المجرم يظهر فيها ظهوراً عابراً فقط ، لكي يحل محله مجرم آخر سريعاً . ومثل هذه الانتصارات السريعة ، باختصار ، تكلف غالياً ، والدفاع عن طامحينا البؤساء الباحثين عن السمعة ، هو من الناحية الاخرى وصول الى الشهرة في الوقت نفسه ، والاماكن نفسها ، وانما بطرق اكثر اقتصاداً ، ولهذا شجعني ذلك على بذل جهود اشد ليكون ما يدفعونه اقل ما يمكن . وكانوا حين يدفعون لي انما يفعلون ذلك بدلا عني ، فالاستياء والموهبة والانفعال ، تلك الامور التي كنت ابذلها من اجلهم ، كانت بدورها تزيل اي دين يمكن ان اشعر به نحوهم . كان القضاة يحكمون والمتهمون يكفرون عن جرائمهم ، بينما كنت انا حراً من اية مسؤولية ، بعيداً عن كل حكم او عقاب ، مرحاً غارقاً في نور كنور جنة عدن .

الم تكن تلك جنة عدن يا سيدي العزيز ، الا يقف شيء بيني وبين الحياة ؟ كانت حياتي كذلك ، ولم يكن علي ان اتعلم كيف اعيش . وبهذا الخصوص ، كنت اعرف كل شيء مقدماً حين ولدت . ان مشكلة بعض الناس هي ان يحموا انفسهم من البشر ، او على الاقل ان يصلوا معهم الى اتفاق . وفي حالتي ، كان الفهم موجوداً منذ البداية . كنت اتصرف بغير كلفة حين يكون ذلك مناسباً . واصمت حين يكون الصمت ضرورياً . وكنت قادراً على اتخاذ مواقف مثل هذه بسهولة وحرية وبالسرعة التي ينطلق بها عنان كبريائي ، مع احتفاظي بالتوافق دائماً . ولذلك كانت شهرتي عظيمة وكان نجاحي في المجتمع كبيراً ، ومظهري مقبولا ، وكنت الوح راقصاً لا يتعب ، ومثقفا لا يضايق ، وكان في وسعي ان احب في وقت واحد - وليس هذا سهلا - النساء والعدالة . ومارست الرياضة والفنون الجميلة - باختصار ، لن استمر خشية ان تتهمني بالغرور الشخصي . ولكن ، تصور فقط ، ارجوك ، رجلا في ذروة قوته ، في اتم الصحة ، موهوبا جدا ، بارعاً في فعاليات الذهن ، ليس غنياً ولا بائساً ، ينام جيداً ، ويرضى عن نفسه بدون ان يكشف عن ذلك بغير طبيعته الاجتماعية المبهجة . يمكنك ان ترى مباشرة كيف انني استطيع ان اتحدث عن الحياة الناجحة بدون ان اغادر تواضعي .

اجل ، لم يكن هنالك الا القلائل ممن كانوا اكثر طبيعية مني . لقد كنت على وفاق مع الحياة في كل ناحية ، وكنت منسجماً معها من قمة رأسي الى اخمص قدمي ، بدون ان ارفض ايا من نقائضها الساحرة او عظمتها او عبوديتها ، وعلى الاخص ، كان الجسد والمادة وكل شيء

مادي مما قد يبعث البعض على اليأس ويفل من عزائمهم سواء كان ذلك في الحب او العزلة ، يتيح لي الغبطة دائماً بدون ان يستعبدني . كان وجودي يتألف من الجسد بصورة خاصة ، وهذا يفسر توافقي الداخلي ، وتلك السهولة في تصرفاتي ، التي كان الناس يشعرون بها . بل كانوا يقولون لي احياناً ان ذلك كان يساعدهم في حياتهم . وكانوا يرغبون في صحبتي . وغالباً ما كان الناس يتصورون انهم كانوا قد قابلوني في الماضي . لقد قدمت الحياة ومخلوقاتها وهباتها نفسها لي ، وقد تقبلت تلك الهبات بفخر وطيبه . والحق انني كنت اعتبر نفسي اسمى من الانسان ، فقط لانني كنت رجلا بكل ذلك الكمال وتلك البساطة . وقد ولدت في بيت محترم ، ولكنه متواضع . كان والدي ضابطاً ، ومع ذلك ، فقد كنت في صباح بعض الايام ، ودعني اعترف بذلك بتواضع ، اشعر وكانني كنت ابن ملك ، او غابة ملتهبة . ولكن هذا لا يعني يقيناً بانني كنت اكثر ذكاء من الاخرين . ثم ان مثل هذا اليقين لا ينتج شيئاً ، لان الكثيرين من الاغبياء يتمتعون بمثل هذا اليقين . كلا ، فكنتيجة لكوني غارقاً في البركات ، كنت اشعر بانني كنت بارزاً ، رغم ترددي في الاقرار بذلك . فقد كنت بارزاً شخصياً ، بين الجميع ، بسبب ذلك النجاح الذي لم ينقطع ابداً . وكان هذا نتيجة لتواضعي . فقد كنت ارفض ان اعلل نجاحي بخصالي ولم يكن في وسعي ان اصدق ان ترافق مثل هذه الفضائل المختلفة والمتطرفة في شخص واحد هو نتيجة الصدفة وحدها ، ولهذا السبب كنت اشعر في حياتي السعيدة بان سعادتي كانت صادرة من سلطة سامية . وحين اضيف انه لم يكن لي اي دين ، فيمكنك ان ترى بصورة افضل كيف ان ذلك الاعتقاد كان شاذا ، وسواء كان عاديا ام لا ، فانه افادني بعض الوقت .

ذ انـــه رفعني فوق مستوى الروتين اليومي . وقد حلقت حقاً عدة سنوات ما ازال احن اليها اذا اردت الحق في صميم قلبي . لقد حلقت حتى ذلـك المساء حين .... كلا ، هذا امر آخر ، ويجب ان يظـل منسياً . على كل حال ، ربما ابالغ . كن واثقاً من انني كنت اتصرف بسهولة في كل شيء ، ولكنني في الوقت نفسه لم اكن لاقنـع بشيء . كانت كل غبطة تجعلني اشتهي اخرى . وقد تنقلت من بهجة الى بهجة ، وكنت في بعض المناسبات ارقص ليالي كاملة ، ويزيد جنوني اكثر فاكثر بالناس والحياة . وفي بعض الاحيان ، حين يتأخر الوقت في تلك الليالي ، وحين يملأني الرقص ، والنشوة الخفيفة ، وحماستي الوحشية ، وانطلاق الجميع بعنف ، بنشوة ذاهلة تعبى ، كان يلوح لي في اللحظة التي اكون فيها منهوكا ، وبسرعة البرق – انني كنت افهم سر المخلوقات والعالم . ولكن التعب كان يختفي في اليوم التالي ، ويختفي معه السر ، واعود الى الاندفاع من جديد . وظللت اندفع كذلك ، مغموراً بالعطاء ، لا اشبع ، دون ان اعرف اين سأقف ، حتى ذلك اليوم – بل ذلـــك المساء ، الذي توقفت فيه الموسيقى وانطفأت الاضواء . الحفـلة المرحة كنت فيها شديد السعادة ... ولكن اسمح لي بان ازور صديقي القرد . هز رأسك لتشكره ، وفوق ذلـك ، اشرب معي ، لانني بحاجة الى فهمك لي .

أرى ان ذلك الاعتراف يدهشك . ألم تشعر فجأة بالحاجة الى التفهم والعون والصداقة في يوم من الايام ؟ أجل ، طبعـاً . ولقد تعلمت انا كيف اقنع بالتفهم انني اعثر عليه بصورة أشد سهولة ، ثم انه ملزم ، وعبارة : « ارجوك ان تؤمن بتفهمي العطوف » ، في الحديث الوثيق

تسبق دائماً عبارة : « دعنـا الآن ننتقل الى امور اخرى . » انهـا عاطفة رئيس مجلس ، وهي تأتي بصورة رخيصة ، بعد الازمات . اما الصداقة فهي اقل بساطة ، والحصول عليها يتطلب وقتاً ، وهو صعب ، اما حين يحصل عليها المرء فيجب ان يسير معها . ولا تظن لحظة واحدة ان اصدقاءك سيتصلون بك تلفونياً كل مساء ، كما يجب عليهم ان يفعلوا ، لكي يعرفوا هل ان هذا المساء هو المساء الذي تقرر فيه ان تنتحر ، او هل انت في حـاجة الى الرفقة ، او انك لست في مزاج يتيح لك الخروج . كلا ، لا تقلق ، فانهم سيتصلون بك في المساء الذي لا تكون فيه وحدك ، حين تكون الحياة جميلة . اما بالنسبة للانتحار ، فـانهم سيدفعونك اليه على الاكثر ، بسبب ما تدين به لنفسك ، كما يعتقدون . لتحمنا السماء ، يا سيدي العزيز ، من ان يضعنا اصدقاؤنا على قاعدة تمثال ! اما اولئك الذين يكون واجبهم ان يحبونا — اعني الاقـارب والصلات (أي تعبير !) — فهم امر آخر . انهم يجدون الكلمة المناسبة ، حقاً ، وهي تصفع عين الثور . وهم يتصلون تلفونياً وكأنهم يطلقون رصاصة . وهم يعرفون كيف يصيبون الهدف . آه ، امثال بازين ، المحاربون !

مـاذا ؟ اي مساء ؟ سأصل الى ذلك . كن صبوراً معي . انني اتحدث في صميم الموضوع ، بطريقة مـا ، حين اتحدث عن الاصدقـاء والاقرباء . انظر ، لقد سمعت برجل كان صديقه قد سجن ، فنام على الارض في كل ليلة لئلا يستمتع بالراحة التي حرم منها صديقه . فمن هو الذي سينام على الارض من اجلنـا ، يا سيدي العزيز ؟ وهل استطيع انا ان افعـل ذلك ؟ انظر ، اود ان يكون في وسعي ، وسيكون .

اجل ، سيكون ذلك في وسعنا جميعاً في احد الايام ، وذلك سيكون الخلاص . ولكن هذا ليس سهلاً ، لان الصداقة تنسى ، او انها على الاقل لا تجدي . انها لا تستطيع ان تحقق ما تريد . ولكن ، ربما لم تكن تريد ذلك ارادة كافية ؟ ربما نحن لا نحب الحياة حباً كافياً ؟ هل لاحظت ان الموت وحده هو الذي يوقظ مشاعرنا ؟ وكيف اننا نحب الاصدقاء الذين غادرونا لتوهم ؟ وكيف نعجب باولئك الاساتذة الذين لم يعودوا يتحدثون ، بعد ان ملأ التراب افواههم ! حينئذ ينبثق التعبير عن الاعجاب طبيعياً ، ذلك الاعجاب الذي ربما كانوا يتوقعونه منا طيلة حياتهم . ولكن ، اتعرف لماذا نكون دائماً اكثر عدلاً واشد كرماً نحو الموتى ؟ السبب بسيط . فليس هنالك التزام نحوهم . انهم يتركوننا احراراً . فيمكننا ان نستمتع بالوقت ، ونضع تلك الطقوس بصورة مناسبة بحيث تكون بين حفلة كوكتيل وعشيقة صغيرة لطيفة ، اي في وقت فراغنا ، باختصار . واذا اضطرونا الى شيء فانه يكون تذكراً وليس لدينا الا ذاكرة قصيرة . كلا ، اننا نحب من بين اصدقائنا اولئك الذين ماتوا حديثاً ، الذين ماتوا متألمين ، عواطفنا نفسها ، انفسنا في الواقع .

كان لي مثلاً صديق كنت اتجنبه دائماً . لقد كان يضايقني ، فضلاً عن انه كان يعظ بالاخلاق . وحين اضطجع على فراش الموت ، كنت هناك – لا تقلق ، فلم يفتني يوم . وقد مات قانعاً راضياً بي ، ممسكاً بيدي . وكانت هنالك امرأة تطارده عبثاً ، وقد دفعها اخلاصها الى ان تموت في شبابها . واي مجال انفتح في قلبي حالاً ! خاصة ، بالاضافة لذلك ، ان الامركان انتحاراً ! يا الهي ، اي اضطراب ممتع ! يقرع

جرس تلفونك ، ويفيض قلبك ، والعبارات القصيرة عمداً ، المحملة مع ذلك بالمضامين الكثيرة ، وعذاب المرء المكبوت ، وحتى ، اجل ، حتى بعض الاتهام واللوم الذاتي .

هكذا هو الانسان يا سيدي العزيز . له وجهان ، فهو لا يستطيع ان يحب بدون ان يحب نفسه . لاحظ جيرانك فيما لو حدث موت في في العمارة . كانوا نائمين في روتينهم الصغير . ثم فجأة ، مثلاً ، يموت البواب . ويستيقظون في الحال ، ويهيجون ويحصلون على التفاصيل ويحزنون . شخص ميت حديثا . ويبدأ العرض اخيراً . انهم يحتاجون الى المأساة ، الا تعرف ؟ انها تمثل نزوعهم الذاتي الصغير ، ومشتهاهم . واكثر من ذلك ، هل هي مصادفة ان اتحدث عن بواب ؟ كان لدي واحد حقود ، لئيم ، بل انه كان وحشاً من التفاهة واللؤم ، وكان قادراً على بث اليأس حتى في نفس متدين فرانسسكي . وكنت قد تخليت حتى عن الحديث معه ، ولكن مجرد وجوده كان يمثل تنازلاً مني عن بعض سعادتي . ومات وذهبت في جنازته . اتستطيع ان تقول لي لماذا ؟ على كل حال كان اليومان اللذان سبقا يوم الجنازة حافلين بالمتعة . كانت زوجة البواب مريضة ، مضطجعة في غرفتها الصغيرة ، وكان التابوت موضوعاً بقربها على عوارض خشبية . وكان على كل شخص ان يستلم بريده بنفسه . فيفتح كل واحد منهم الباب ويقول : « صباح الخير يا سيدتي » ، ثم يصغي لمديحها للراحل العزيز بينما كانت تشير اليه ، ويأخذ بريده . وليس هنالك ما يلذ للمرء في ذلك . ومع هذا فان سكان العمارة جميعهم كانوا يمرون في غرفتها التي كانت تتنفس برائحة حامض الكاربونيك . كما ان اصحاب العمارة لم يرسلوا خدمهم ايضاً ،

وانما حضروا بانفسهم ليستغلوا المنظر الذي لم يكن متوقعاً . وكذلك فعل الخدم ايضاً ، ولكن بالحيلة . وفي يوم الجنازة كان التابوت اكبر من الباب ، وقالت الزوجة وهي في فراشها : « آه يا عزيزي » ، وكان في صوتها شيء من الدهشة التي كان يمتزج فيها الجذل بالاسى حين اضافت : « كم كان كبيراً ! » واجابها المشرف على الجنازة : « لا تقلقي يا سيدتي ، فسنخرجه من الباب بصورة جانبية عمودية . » وأُخرج معتدلاً ثم امالوه ثانية ، وكنت الوحيد (مع بواب سابق في احد الملاهي ، كان ، كما خمنت ، يشرب البيرنو كل مساء مع الراحل) الذي ذهب حتى المقبرة ووضع الزهور على التابوت الذي كان ترفه مدهشاً . ثم قمت بزيارة لزوجة البواب لاحصل على شكرها الذي عبرت عنه كما تعبر عنه الممثلة التراجيدية العظيمة . اخبرني ، ماذا كان سبب ذلك كله ؟ لا سبب ما عدا كونه مشهياً .

وكذلك دفنت زميلاً قديماً من اعضاء نقابة المحامين ، وكان كاتباً لم يكترث له احد ، ولكنني كنت اصافح يده دائماً . وكنت اصافح ايدي الجميع اينما عملت ، بل انني كنت اتأكد جيداً لئلا انسى احداً . وبدون كبير مجهود ، اكسبتني تلك البساطة المتوددة حب الجميع ، الامر الذي كان ضرورياً جداً لسعادتي . ولم يخرج رئيس النقابة في جنازة كاتبنا ، ولكنني فعلت ، وفي مساء سفره ، كما كنت قد اشرت بوضوح ، اذ حدث انني كنت اعرف ان حضوري سيكون موضع الملاحظة وكذلك التعليقات التي هي بجانبي ، وهكذا فانت ترى انه لم يمنعني شيء من الحضور ، حتى ولا الثلج الذي كان يتساقط في ذلك اليوم .

ماذا ؟ كلا ، لا تخش شيئاً ، لقد اعتدت على ذلك . ثم انني لم

اتركه أبداً . ولكن دعني اخبرك أولا بأن زوجة البواب التي دفعت الكثير من اجل الصليب وخشب البلوط الثقيل والمقابض الفضية لكي تحصل من عاطفتها على اكثر ما يمكنها ان تحصل عليه ، علقت بعد شهر من ذلـك بريفي ، مفرط في ثيـــابه ، فخور بصوته الغنائي . وكان يضربها ، وكانت الصرخات المرعبة تسمع بوضوح ، ثم يفتح الشباك بعد ذلك مباشرة وينطلق مغنياً اغنيته المحببة الى نفسه : « ايتها النساء ، ما اجملكن ! » وكان الجيران يقولون : « نفس الشيء ! » نفس الشيء ماذا ؟ انني اسألك . حسناً ، كانت المظاهر ضد المغني وضد زوجة البواب ايضاً ، ولكن ليس هنالـك ما يثبت انهما لم يكونا متحابين ، ولا شيء يثبت انها لم تكن تحب زوجها . واكثر من ذلـــك ، فحين هرب الريفي ، بعد ان اصاب الانهاك صوته وذراعه ، استمرت تلـك الزوجة المخلصة في مديحها للراحل . ثم انني اعرف آخرين كانت المظاهر الى جانبهم ، بينما لم يكونوا اشد اخلاصاً او صدقاً . اعرف رجلا تخلى عن كل شيء ، تخلى عـن عشرين سنة من عمره من اجل امرأة مشتتة الذهن ، مضحياً بكل شيء في سبيلها ، أصدقاءه ، وعمله والاحترام الذي كانت حياته تتميز به ، وادرك في احدى الامسيات انه لم يكن يحبها ابدا . كان ضجراً ، هذا هو كل ما في الامر ، ضجراً كاكثر الناس . وهكذا صنع لنفسه حياة مليئة بالتعقيدات والمأساة . لا بد ان يحدث شيء – وهذا يفسر معظم الالتزامات البشرية . لا بد ان يحدث شيء ، حتى العبودية التي لاحب فيها ، حتى الحرب ، او الموت . اهرع اذن الى الجنائز !

ولكن لم يكن لدي ذلك العذر على الاقـل . لم اكن ضجراً لانني

كنت امتطي عرف الموجة ، وفي المساء الذى ذكرته يمكنني ان اقول انني كنت اقل ضجراً من قبل . ومع ذلـك ... انت ترى يا سيدي العزيز انه كان مساء جميلا من امسيات الخريف ، وكان الدفء ما يزال يعم المدينة ، والرطوبة بدأت تنتشر فوق نهر السين . وقد هبط الليل ، والسماء ما تزال براقة في الغرب ، وكانت تظلم شيئاً فشيئاً ، ومصابيح الشارع تتأجج في خفوت . وكنت اسير على ارصفة الضفة اليسرى نحو جسر الفنون . وكان النهر يتألق بين صفوف الكتب المستعملة . ولم يكن هنالـك غير القلائل على الارصفة ، وباريس منهمكة في تناول العشاء . وكنت اخطو على الاوراق المغبرة الصفراء التي كانت ما تزال تتذكر الصيف . وكانت السماء تمتلىء تدريجياً بالنجوم التي كان في وسعي ان اراها بعد مغادرة احد مصابيح الشارع والاتجاه نحو مصباح آخر . واستمتعت بعودة الصمت ، وهـدوء المساء ، وخلو باريس . وكنت سعيداً ، وكان النهار طيباً : رجل اعمى ، العبارة المقتضبة التي كنت ارقبها ، والمصافحة الودية من زبوني ، وبعض الهبات التي منحتها ، وبعد الظهر ، بعض الحديث المرتجل بصحبة عدد من الاصدقاء عن قسوة طبقتنا الحاكمة ونفاق قادتنا .

وصعدت الى جسر الفنون ، الذي كان مهجوراً في تلك الساعة ، لأنظر الى النهر الذي لم يكن في وسعي ان اراه بسهولة بعد ان هبط الليل . وبينما كنت اواجه تمثال فيرغالان ، كنت اسيطر على منظر الجزيرة . وأحسست بشعور متزايد من القوة ينبثق في داخلي ، و — لست اعرف كيف اعبر عن ذلك — الكمال ، الذي ابهج قلبي . واعتدلت ، وبينما كنت احاول ان اشعل سيكارة ، سيكارة القناعة ،

انبثقت في تلك اللحظـة ضحكة خلفي . ودهشت ، واستدرت خلفي فجأة ، ولم يكن هنالك احد . واتجهت نحو السياج ، ولم تكن هنالك مقطورة نهرية ولا قارب . وعدت نحو الجزيرة ، ومرة اخرى سمعت الضحك خلفي ، أبعد قليلاً ، وكأنه كان ينحدر مع التيار ، ووقفت هنالك بلا حراك ، وكان صوت الضحك يخفت ، ولكنني كنت استطيع سماعه خلفي بوضوح ، آتياً من اللامكان ، ما عدا المساء . وفي الوقت نفسه كنت احس بضربات قلبي السريعـة . ارجوك ألا تسيء فهمي ، فلم يكن هنالك اي غموض بشأن تلك الضحكة ، وانما كانت طيبة ، قلبية ، بل ودية تقريباً ، وقد اعادت تثبيت النسب المعقولة .

بعد ذلك مباشرة لم اسمع اي شيء . وعدت الى الارصفة ، ودخلت شارع دفين ، واشتريت بعض السكائر التي لم اكن في حاجة اليها ابداً . كنت في شبه غيبوبة ، اتنفس بصعوبـة . واتصلت بصديق في ذلك المساء ، ولكنه لم يكن في بيته . وكنت متردداً في الخروج ، حين سمعت الضحك فجأة تحت نوافذي ، وفتحتها ، وكان هنالك في الواقع بعض الشبان على الممر الجانبي يقولون لبعضهم بصوت عال : « طابت ليلتكم . » وهززت كتفي بينما كنت اغلق النوافذ ، وكان عليّ بعد كل ذلك ان ادرس خلاصة احدى القضايا . ومضيت الى غرفة الحمام لأتناول قدحاً من المـاء ، وكان ظلي يبتسم في المرآة . ولكن لاح لي ان ابتسامتي كانت مزدوجة ...

ماذا ؟ المعـذرة . كنت افكر في شيء آخر . من المحتمل ان اراك مرة اخرى غداً . غداً ؟ اجل ، هذا صحيح . كلا ، كلا ، لا استطيع ان ابقى . ثم ان ذلك الرجل الاسمر الذي يشبه الدب والذي

تراه هناك قد استدعاني طلباً المشوره.وهو حقاً رجل محترم،وانما يضطهده رجال الشرطة اضطهاداً لا سبب له غير شذوذهم المحض. اتظن انه يلوح قاتلاً ? اطمئن ، فان افعاله تنطبق على ملامحـــه ، فهو يقتحم الدور ايضاً ، وسيدهشك ان تعرف ان انسان الكهف هذا متخصص في تجارة الاعمال الفنية ، وفي هولندة ، تجد ان الجميع متخصصون في اللوحات او الزهور ، وهذا الرجل بملامحه المتواضعة هو الذي قام بأشهر سرقـة في عالم سرقات اللوحات الفنية . أية لوحة ? قد اخبرك . لا تندهش من معرفتي لذلك . وبالرغم من انني قاض تائب ، الا انني اقوم بعمل ثانوي هنا . فأنا المستشار القانوني لهؤلاء الناس الاخيار ، وقـد درست قوانين البلد وخلقت لنفسي بعض الزبائن في هذه المنطقة حيث لا يتطلب الامر اية شهادة . ولم يكن الامر سهلاً ، الا انني استطيع ان اكسب الثقـة ، اليس كذلك ? لدي ضحكة طيبـة قلبية ، ويد مصافحـــة متحمسة ، ومثل هذه الامور تسهل لي الكثير . ثم انني استطعت ان اتوصل الى تسويـة بعض القضايا الصعبـة بـــدافع من اهتمامي الشخصي مبدئياً ، ثم بدافع من العقيدة . لانــه اذا حكم على القوادين واللصوص بدون استثناء ، فان كل الناس المحترمين سيعتقدون انهم ابرياء دائمــاً يا سيدي العزيز . وفي رأيي – حسناً ، حسناً ، أنا آت ! – فان هذا هو ما علينا ان نتحاشاه بعد كل ذلك . والا فان كل شيء يكون مجرد دعابة .

اني لشاكر لك حقاً يا مواطني العزيز فضولك هذا . وعلى كل حال فليس هنالك شيء غريب في قصتي ، وما دمت مهتماً بالامر فسأخبرك بانني لم افكر في تلك الضحكة الا قليلاً ، بضعة ايام ، ثم نسيت كل شيء عنها . وكنت اسمعها بين بعض الفترات الطويلة في اعماقي . ولكنني كنت طيلة الوقت افكر في امور اخرى دون ان ابذل اي مجهود .

ومع ذلك فيجب علي ان اقر بأنني كففت عن التمشي على ارصفة باريس ، وحين كنت امر بها في سيارة تاكسي او في الباص فان نوعاً من الصمت كان يخيم علي . لعلي كنت انتظر ، ولكنني كنت اعبر السين دون ان يحدث شيء ، واتنفس ثانية . وكنت اواجه بعض المشاكل الصحية في ذلك الحين ، ولم يكن هنالك شيء واضح ، ولكن ، ربما كان الامر كآبة ، او صعوبة في استعادة مزاجي المرح . وقد زرت الاطباء الذين كانوا يعطونني المنبهات . وكنت اتنبه واكتئب بصورة متعاقبة . وصارت الحياة اقل سهولة بالنسبة لي : حين يكتئب الجسم فان القلب يذبل . ولاح لي انني كنت انسى نصف نسيان ما لم اكن قد تعلمته ابداً ، وما كنت اعرفه كل المعرفة – كيف اعيش . اجل ، اعتقد ان الامر كله بدأ في ذلك الحين .

ولكن ، يلوح لي انني غير قـــادر على شيء في هذا المساء ، بل انني لأجد صعوبة في التعبير . ويلوح لي انني لست اتحدث جيــداً ، كما ان كلماتي صارت اقل ثقة ، ربما يكون ذلك بسبب الطقس ، فمن الصعب علي ان اتنفس ، والهواء ثقيل بحيث انه يكلكل على صدري . اتعترض يا مواطني العزيز على الخروج والتمشي في المدينـــة قليــلاً ؟ شكراً .

كم هي جميلة هذه القنوات في هذا المساء ! انني اميل الى شم رائحة المياه الآسنة ، والاوراق الذابلة المشبعة بميــاه القنوات ، وعطر الجنائز الذي ينبعث من المقطورات النهرية المحملة بالزهور . كلا ، كلا ، اؤكد لك انه ليس هنالك اي شعور مريض في مثل هذا الميل ، بالعكس ، انه متعمد في حالتي . والحقيقة هي انني اضطر نفسي الى الاعجـــاب بهذه القنوات . والشيء الذي احبه اكثر من اي شيء آخر في العالم هو صقليه كما ترى ، وخاصة من قمة ايتنا . وفي نور الشمس ، بشرط ان اسيطر على منظر الجزيرة والبحر . جاوة ايضاً ، ولكن في ايام الرياح التجاريـــة . اجل ، لقد ذهبت الى هناك في شبابي . انني احب كل الجزر بصورة عامة ، فمن السهل ان يسيطر الانسان على منظرها كلها .

بيت جميل ، اليس كذلك ؟ الرأسان اللذان تراهما فوقه هما رأســا عبدين زنجيين ويمثلان لوحة دكان . وكان البيت من املاك احــد تجــار الزنوج . آه ، لم يكونوا ليثيروا صخباً كبيراً في تلـــك الايام . كانوا واثقين ، وكانوا يعلنون : « ترون انني رجــل له اهميته ، وأنا اتاجر بالعبيد ، باللحم الاسود . » اتستطيع ان تتصور احداً اليوم يعلن على الناس ان عمله هو كذلك ؟ اية فضيحة ! انني استطيع ان اسمع زميلي

الباريسي فعلاً . انهم عنيدون في هـذا الشأن ، وهم لا يترددون في اعلان بيانين او ثلاثة ، وربما اكثر ! وحين افكر في ذلك فقد اضيف توقيعي الى تواقيعهم . العبودية ? – كلا بالطبع . نحن ضدها ! ان نكون مضطرين الى تثبيت ذلك في بيوتنا ومصانعنا – حسناً ، هـذا طبيعي ، ولكن الفخر بذلك ، هذا هو الحد !

انني ادرك ان المرء لا يستطيع الاستمرار في العيش مـع الآخرين بدون ان يتحكم فيهم او بدون ان يخـدموه ، فكل انسان يحتاج الى العبيد كما يحتاج الى الهواء النقي ، والامر هو تنفس – أتوافقني ? وحتى اشد الناس بؤساً يستطيعون ان يتنفسوا . وأوطأ رجل في السلم الاجتماعي يملك زوجة او ولداً ، واذا لم يكن متزوجاً فانه يملك كلبـاً . والامر المهم بعد كل ذلك هو ان يكون المرء قادراً على الغضب على شخص ما ، لا يملك حـق الرد . « والمرء لا يستطيع ان يرد على كلام والده » – أتعرف هذا التعبير ? انه غريب جداً من زاوية واحدة . ترى على من سيرد المرء في هذا العالم اذا لم يفعل ذلك مع من يحب ? ومن زاوية اخرى فانه مقنع . فلا بد ان تكون الكلمة الاخيرة لشخص مـا ، والا فيمكن الرد على أي سبب بسبب آخر ، ولكن بدون ان تكون نهاية لذلك . والقوة ، من الناحية الاخرى ، تحل كل مسألة . وقـد استغرق ذلك وقتاً ، الا اننا ادركنا ذلك في النهاية . انت ترى مثلاً ان قارتنا القديمة اوروبا بدأت تتفلسف اخيرا كما يجب ، فـلم نعد نقول كما كنا نفعل في الايام الساذجة : « هذا هو رأيي ، فما هو اعتراضك ? » وانما اصبحنا سلسي القياد ، واستبدلنا المحادثات بالبيان المشترك ، وصرنا نقول : « هذه هي الحقيقة . ويمكنك ان تبحثها بقدر ما تشاء ، فذلك

لا يهمنا ، ولكن ستكون هنالك خلال بضع سنوات شرطة ستقول لك اننا كنا على حق . »

آه ، هذا الكوكب العزيز العتيق ! لقد اتضح كل شيء الآن ، ونحن نعرف انفسنا ، ونعرف الآن ماذا نستطيع ان نفعل . خذني أنا مثلاً ، لنغير الامثلة بدلاً من ان نغير المواضيع فقد كنت دائماً اريد ان يخدمني الآخرون باسمين . فاذا كانت الخادمة كئيبة ، فانها تسمم ايامي . ولها الحق في ألا تكون مبتهجة ، بالتأكيد ، ولكنني قلت لنفسي انه من الافضل للخادمة ان تؤدي واجباتها ضاحكة من ان تفعل ذلك دامعة العينين . والحق ان ذلك كان افضل بالنسبة لي . ومع ذلك ، وبدون ان يكون في الامر اي فخر ، اجد ان استنتاجي هذا ليس غبياً . وكذلك فقد كنت دائماً ارفض ان اتناول طعامي في المطاعم الصينية ، لماذا ؟ لانه حين يكون الشرقيون صامتين وبحضور البيض ، فانهم يضمرون الاحتقار دائماً . وهم بالطبع يعبرون عن ذلك في ملامحهم اثناء الخدمة . فكيف سيكون في وسعك بعد ذلك ان تستمتع بالدجاجة المحمصة ؟ وعلاوة على ذلك ، كيف يكون في وسعك ان تنظر اليهم ثم تؤمن بأنك على حق ؟

بيني وبينك ، ألا ترى ان العبودية ، خاصة اذا كانت تصحبها ابتسامة ، هي حتمية ؟ ولكننا يجب ان لا نقر بذلك . أليس من الافضل لذلك الذي لا يستطيع ان يستغني عن العبيد ان يسميهم احراراً ؟ أولاً من حيث المبادىء ، وثانياً ، لكي لا تدفعهم الى اليأس . اننا مدينون لهم بذلك التعويض ، اليس كذلك ؟ وهكذا ، فانهم سيستمرون في الابتسام ، بينما نحافظ نحن على ضميرنا . والا فيجب علينا

ان نراجع رأينـا عن انفسنا مرة اخرى ، ويؤدي بنـا العذاب الى الجنون ، او ان نصبح متواضعين - لان كل شيء سيكون محتمـلاً . وبالنتيجة ، فلن تكون هنالك لوحات دكاكين ، وهـذا الامر بالذات يسبب صدمة . ثم انه اذا قال كل واحد كل شيء وكشف عن مهنتـه الحقيقية وهويته فاننا لن نعرف اين سيصل بنا الامر ! تصور ان نكتب على بطاقات الزيارة : السيد دوبون ، الفيلسوف المتقلب ، او المالـك المسيحي ، او الانساني الفاسق - هنالك حقاً مجال واسع للاختيـار . ولكن ذلك سيكون جحيمـاً ! اجل ، لا بـد ان الجحيم كذلك : الشوارع المليئة بلوحات الدكاكين ، دون ان تكون هنالك طريقة يوضح بها المرء نفسه ، وانما يحصل كل واحد على تسمية نهائية له .

انت مثلاً ، يا مواطني العزيز ، تمهل وانظر ماذا ستكون لوحتك . أتصمت ؟ حسناً ، ستخبرني فيما بعد . انني اعرف لوحتي على كل حال : وجه مزدوج ، جانوس[1] فاتن ، وفوق ذلك شعار المحل : « لا تثـق بذلك » . واما على بطاقتي فتجد : « جان بابتيست كلامانس ، ممثل مسرحي » . لماذا ، بل انني اكتشفت شيئاً مباشرة بعد المساء الذي اخبرتك عنه . فبينما كنت اترك الاعمى في الناحية الاخرى من الشارع التي كنت أقوده اليها ، كنت ألمس قبعتي له . ومن الواضـح ان تلك اللمسة لم تكن من اجله ، لانه لا يستطيع ان يراها . فلمن كانت موجهة ، للجمهور . وبعد ان العب دوري ، انحني . ليس سيئاً ، هـا ؟ وفي يوم آخر خلال الفترة ذاتها ، اجبت سائق سيارة كان يشكرني لانني ساعدته ،

---

(١) جانوس إله ايطالي (إله البداية والنهاية) يصورونه برأسين متعاكسين ويتضمن معنى الخداع . — المترجم —

قائلاً انه لم يكن احد ليفعل ذلك القـدر ، وكنت اعني بالطبع ان الجميع كانوا سيفعلون ذلك . ولكن ذلك الخطأ خيم ثقيلاً على صدري ، لانه بدلاً من التواضع ، اخذت قطعة الكيك لنفسي .

لا بد ان اقر بذلك بخضوع ، يا مواطني العزيز ، فقـد كنت اتفجر بالغرور . انا ، انا ، انا ، هي اللازمة التي رافقت حياتي كلها ، وكان من الممكن سماعها في كل شيء كنت اقوله . ولم اكن قادراً على الكلام بدون ان افخر ، خاصة اذا كنت افعل ذلك بالحصافة الهائلة التي كنت مختصاً بها . انه لصحيح تماماً القول بانني قد عشت حيـاة دائمية من الحريـة والقوة . لقد كنت ببساطة اشعر بالتحرر بالنسبة للجميع لسبب بديع ، هو انني لم اؤمن بوجود احد يساويني منزلة او شأناً . وكنت اعتبر نفسي اشد ذكاء من اي شخص آخر ، كما اخبرتك ، وانما ايضاً ، اشد حساسية ، وبراعـة ، في اطلاق الرصاص ، في السياقة ، في الحب . حتى في الحقول التي كان في وسعي ان اكتشف فيهـا قلة شأني – كالتنس ، مثلاً ، الذي لم اكن فيه غير لاعب عابر ، وكان صعب علي الا اعتقد انني ، اذا اتيح لي وقت قصير للتمرين ، استطيع ان افوز على افضل اللاعبين . ولم اقر في نفسي الا بالتفوق ، وهذا يفسر نواياي الحسنة ووقاري . وحين كنت اهتم بالآخرين ، فقد كنت افعـل ذلك متنازلاً ، حراً تماماً ، وكان الفضل في ذلك كله يعود لي انا : لان احترامي لنفسي يرتفع درجة واحدة .

ومع حقائق اخرى ايضاً ، اكتشفت كل تلك الحقـائق شيئاً فشيئاً في الفترة التي تبعت ذلك المساء الذي اخبرتك عنـه . ولم افعل ذلك كله فجأة ، ولا بوضوح شديد . فقد كان عليّ اولاً ان استعيد ذكرياتي ،

وبدرجات متدرجة ، بدأت ارى بوضوح اشد ، لانني كنت اتعلم شيئاً فشيئاً ما كنت اعرفه . وحتى ذلك الحين ، كانت تعينني قابلية عجيبة على النسيان . كنت انسى كل شيء ، اعتباراً من قراراتي . ولم يكن هنالك شيء ليهمني اهمية جوهرية . وكانت الحرب والانتحار والحب والبؤس اموراً تحظى باهتمامي ، طبعاً ، حين كانت تضطرني الظروف ، ولكن ذلك كان اهتماماً سطحياً مجاملاً . وكنت في بعض الاحيان اتظاهر بالانفعال بسبب مسألة خارجة عن نطاق حياتي اليومية . ولكنني لم اكن اساساً لآخذ لنفسي اي دور فيها ، ما عدا حين يهدد الامر حريتي . كيف يتسنى لي ان اعبر عن ذلك ؟ كان كل شيء يتجنب طريقي – أجل كل شيء يسقط عن نطاق مسؤوليتي .

ولكي اكون عادلاً ، يجب ان اذكر ان نسياني كان في بعض الاحيان يستحق الشكر . لقد لاحظت ان هنالك قوماً يتألف دينهم من غفران كل الاساءات ، وهم يغتفرون الاساءة ولكنهم لا ينسونها ، ألم تلاحظ ذلك ؟ ولكنني لم اكن قادراً على غفران الاساءات ، وانما كنت بالنتيجة انساها تدريجياً . وكان الشخص الذي يكرهني لا يستطيع ان يفعل شيئاً امام لمسي القبعة له مبتسماً . فوفقاً لطبيعته ، كان يعجب بنبلي ونبل شخصيتي ، او يحتقر تربيتي السيئة ، بدون ان يدرك ان الامر كان ابسط من ذلك : لانني كنت قد نسيت حتى اسمه . وهكذا فان هذا التقلب الذي كان غالباً يجعلني لا اكترث ، او انكر ، مثل هذه المسائل ، كان يجعلني حليماً كريماً .

لقد عشت باستمرار بدون ان ترافقني اية استمرارية الا تلك الاستمرارية اليومية التي كنت اقول بها أنا ، أنا ، أنا . ومن النساء

اللواتي كن يدخلن حياتي كل يوم ، من الفضائل او السيئات التي كنت افعلها كل يوم ، من يوم لاخر ، كالكلاب – ولكن نفسي كانت مطمئنة الى مركزهـا في كل يوم . وهكذا كنت اتقدم على سطح الحياة ، في دنيا الكلمات ، اجل ، كما لو ان الامر كان في دنيا الكلمات ، وليس في الواقع . كل تلك الكتب التي لم اقرأها الا نادراً ، وهؤلاء الاصدقاء الذين لم اكن احبهم الا قليلاً ، وتلك المدينة التي لم اكن ازورها ، وتلك النساء اللواتي كنت املكهن قليلاً ! وكنت اؤدي الاشارات بسبب من ضيقي او غياب ذهني . ثم كانت الكيانات البشرية تحضر ، وتريد ان تتعلق ، ولكن كان ذلـك سيئـاً – بالنسبة لها . اما بالنسبة لي ، فقد كنت انسى . ولم اتذكر شيئاً غير نفسي ابدا .

وتدريجياً عـادت ذاكرتي على كل حال ، او انني عدت اليها ، ووجدت فيها التذكر الذي كان ينتظرني . ولكن قبل ان اخبرك عنه ، اسمح لي يا مواطني العزيز ان اقدم لـك بعض الامثلة (وانا واثق من انها ستفيدك) عما اكتشفته اثناء بحثي .

فقد كنت في يوم من الايام في سيارتي ، وبينما كنت بطيئاً جداً في الانطلاق بها اثناء اشتعال النور الاخضر ، بينما كان الاخرون من زملائي المواطنين صاخبين خلفي ، تذكرت فجأة مثالا آخر حدث في نفس تلك الظروف . دراجة بخارية كان يركبها رجل ضئيـل يضع على عينيه نظارات انطلقت بكل سرعتها واخذت مكانها امامي عند الضوء الاحمر . وحين اوقف الرجل الدراجة انطفأت ماكنتها ، وراح يحاول ان يشغلها ثانية ، ولكن عبثاً . وحين تغير النور ، سألته بكل مجاملة ان يبعد دراجته عن طريقي لكي امر . وكان الرجل الضئيل قـد بدأ يهتاج

بسبب دراجته ، ولهذا اجاب ، طبقاً لقواعد المجاملة الباريسية ، بانني استطيع ان اتسلق شجرة . واصررت ، وكنت ما ازال مؤدباً ، ولكن كان هنالك ظل خفيف من نفاد الصبر في لهجتي . وقيل لي انني كنت استطيع على اي حال ان اذهب الى الجحيم ، وفي ذلـــك الحين بدأت ابواق السيارات تصخب خلفي . وبثبات اشد ، طـلبت من محدثي ان يكون أكثر أدبا وان يدرك انه كان يعطل المرور . والان وقد ادرك ذلـــك الشخص الذي تسهل استثارته سوء نية دراجته البخارية ، فقد اخبرني بانني اذا كنت اريد ان احصل على ما سماه بطحن عظامي تماماً فانه سيسره ان يعطيني ذلك . وملأتني مثـــل هذه السخرية بغضب لاغبار عـليه ، فخرجت من سيارتي وفي نيتي ان اسحق هذا الشخص الخشن . لا اعتقد انني جبان (ولكن مـــا هو الامر الذي لا يعتقده المرء في نفسه !) وقد كنت اطول من خصمي بمقدار رأس ، وكنت اعتمد دائماً على عضلاتي . ولكنني ما ازال اعتقد انني انا الذي كنت ساحصل على طحن العظام ، وليس هو . ولكنني لم اضع قدمي بعد على الشارع ، حين قفز رجل من بين الجمع المزدحم ، واندفع نحوي ، وقال لي انني كنت اسفـــل السافلين ، وانه لن يدعني اضرب رجلاً تعترضه دراجة عــاطلة بين ركبتيه . واستدرت نحو هذا الفارس ، ولم أره في الواقع ، ففي اللحظة التي التفت فيها ، في الوقت نفسه بالضبط سمعت الدراجة البخارية تعربـد من جديد ، وتلقيت ضربة عنيفة على اذني . وقبل ان يتسنى لي الوقت لاسجل ما حدث ، انطلقت الدراجة مبتعدة . وكنت مذهولا ، فسرت بصورة ميكانيكية نحو دارتانيون ، بينما كان ينبعث صخب هائل مستاء من ابواق السيارات التي كانت تشكل خطاً طويلاً في تلك الاثناء . وتغير الضوء الى الاخضر ، وكنت مـــا

ازال مذهولا نوعاً مـا ، وبدلاً من ان اضرب المعتوه الذي كان قد خاطبني ، عدت الى السيارة بكل لطف ، وانطلقت بها . وبينما كنت سائراً ، حياني المعتوه قائلاً : « الاحمق المسكين » ، عبـارة ما ازال اذكرها .

اتعتقد ان هذه القصة تافهة تماماً ؟ ربما . ولكنها استغرقت وقتـاً طويلاً حتى استطعت نسيانها ، وهـذا هو المهم . ولكن كان لدي عذري . لقد تركت نفسي مضروباً بدون ان ارد ، الا انني لا يمكن ان اتهم بالجبن . فقد فوجئت ، وكان هنالك شخصان يتحدثان معي ، وهكذا فقد كنت اخلط بين الاشياء ، وأضافت ابواق السيارات مـــا كان ينقص ركبتي . ومع ذلك فقد كنت تعيساً بسبب ذلك وكأنني كنت قد خرقت قواعد الشرف . واستطيع ان ارى نفسي وانا اعود الى السيارة بدون رد فعل ، تحت رحمة نظرة الجمهور الساخرة ، الجمهور الذي كان مستمتعاً بصورة خاصة لانني كنت ارتدي بذلة زرقاء انيقة جـــداً كما اتذكر . واستطيع ايضاً ان اسمع « الاحمق المسكين » ، تلك العبارة التي شعرت ، برغم كل شيء ، بأنه قد كان لها ما يبررها . وباختصار ، كنت قد اصبت بانهيار امام الجمهور . وكان ذلك نتيجـة لسلسلة من الحوادث ، حقاً ، ولكن الحوادث والظروف موجودة دائماً . والآن ، حين افكر بذلك ، استطيع ان ارى بوضوح ما كان عليّ ان افعله . رأيت نفسي اهبط على ذقن دارتانيون بضربة ماحقة ، وأعود الى سيارتي ، وأتبع القرد الذي ضربني وألحق به ، واضايق دراجته عند طرف الشارع ، وآخذه جانبـــاً ، وأضربه الضرب الذي كان يستحقه تماماً . وكنت اغير بعض تفاصيل هذا الفيلم واعرضه في ذهني

مئات المرات . ولكن ذلك كان بعد فوات الاوان ، وظللت بضعة ايام وانا امضغ الاستياء المر .

لماذا ، انها تمطر ثانية . مـا هو رأيك في ان نقف تحت السقيفة ؟ حسناً . اين كنت ؟ آه ، الشرف ! حسناً ، حـين استعدت ذكرى تلك الحادثة ، فهمت ما كانت تعني . ثم ان حلمي لم يطابق الحقائق . لقد حلمت – وهذا واضح الآن – بأن اكون رجلاً كاملاً ناجحـاً في جعل نفسه محترماً ، في شخصه وفي مهنته . نصف سيردان ، نصف ديغول ، اذا شئت . باختصار ، كنت اريد ان اكون المسيطر في كل شيء . ولهذا السبب كنت اتظـاهر وأركز على عرض براعتي الجسمية اكثر من أية موهبة ذهنية . ولكن بعد ان تلقيت الضربة علناً بدون ان ارد عليهـا ، لم يعد في وسعي ان احتفظ في ذهني بتلك الصورة الجميلة عن نفسي . ولو كنت صديق الحقيقـة وصاحب الذكاء الذي كنت ادعيه ، فأية اهمية كانت ستكون لتلك الحادثة ؟ لقد نساهـا اولئك الذين رأوها فعلاً ، ولم اكن لاتهـم نفسي بالغضب من لاشيء ، ولم اكن لاتهم نفسي ، بعد ان غضبت ، بعـدم النجاح في مواجهـة النتائج التي يستتبعها غضبي ، لعدم حضور ذهني . وبـدلاً من ذلك ، كنت متلهفاً الى الانتقام ، الى الضرب ، والفوز ، وكأن رغبتي الاصيلة لم تكن تتمثل في ان اكون اذكى الناس او اشدهم كرماً ، وانما في ان اضرب كل من اساء ، وأن اكون الاقوى ، باختصار ، وبأشد الطرق بدائية . والحقيقة هي ان اي شخص ذكي ، كما تعرف ، يحلم بأن يكون من رجال العصابات ، وبأن يحكم المجتمع بالقوة فقط . ولمـا لم يكن الامر بالسهـولة التي تصورها بها الروايات البوليسية للذهن ،

فان المرء يفعل ذلك غالباً بواسطة السياسة ، وينضم الى اشد الاحزاب قسوة . وماذا يهم ، بعد كل ذلك ، اذا كان المرء حين يخضع ذهنه يفلح في السيطرة على الجميع ؟ لقد اكتشفت في نفسي احلامـــاً عذاباً عن الاضطهاد .

لقد علمت على الاقل بأنني كنت اقف في جانب المذنبين ، والمتهمين ، طالما ان جرائمهم لم تكن لتسبب لي اي اذى . كانت ذنوبهـم تجعلني بليغاً لانني لم اكن ضحيتهم . وحين كنت اتلقى تهديداً فانني لم اكن اصبح قاضياً بدوري ، وانمـا اكثرمن ذلك ، كنت سيداً سهـــل الاستياء ، يريد بصرف النظر عن كل القوانين ان يصرع المسيء ارضاً ويجعـله يزحف على ركبتيه . وبعد ذلك ، يا مواطني العزيز ، فمن الصعب الاستمرار في الاعتقـاد بصورة جادة بأن المرء يملك ميلاً اساسياً الى العدالة ، وبأنه المحامي الذي قدرله ان يدافع عن الارملة واليتيم .

وما دام المطر يشتد ، ولدينا الوقت الكافي ، هل لي ان اخبرك باكتشاف آخر عثرت عليه بعد ذلك مباشرة في ذاكرتي ؟ دعنـا نجلس على هذه المصطبة بعيداً عـــن المطر . مرت قرون طويلة على مدخني الغليون ، يرقبون المطر نفسه وهو يهطل على القنوات ذاتها . ان مـــا يجب علي ان اخبرك به هو صعب قليلاً . الامر هذه المرة يخص امرأة . يجب عليك ان تعرف اولاً انني كنت ناجحاً دائمـاً مع النساء – دون ان ابذل مجهوداً كبيراً . ولست اعني انني انجح في اسعـادهن او في اسعاد نفسي بواسطتهن . كلا ، وانمـا انجح فقط . كنت احقق اهدافي حولي كلما اردت ذلك . كنت أُعتبر فاتناً . تأمل ! انت تعرف مـا

هي الفتنة : الطريقة التي تحصل بها على (نعم) بدون ان تكون قد طلبت ذلك بوضوح . وكان هذا منطبقاً عليّ في ذلك الحين . ايدهشك ذلك ؟ هيا ، لا تنف ذلك . فبـــالوجه الذي تراه الآن ، لا بد ان انكارك ذلك طبيعي . يا للتعاسة ، ولكن ، بعد عمر ما ، يكون كل شخص مسؤولاً عن وجهه . وجهي ... ولكن ما يهم ؟ انها لحقيقة — كنت أُعتبر فاتناً ، وقد عرفت كيف استغل ذلك .

كنت حسن النية ، بدون ان اتعمد ذلك ، أو انني كنت كذلك تقريبـاً ، وكانت علاقتي بالنساء طبيعية ، حرة ، سهلة ، كما يقولون . ولم يكن فيها اي خداع ، غير ذلك الذي تعتبره النساء مديحاً . كنت احبهن ، وهذا التعبير الفارغ يعني انني لم احب واحدة منهن . وكنت اعتبر كراهية النساء امراً عادياً لا يخلو من الحمـاقة ، كما ان كل النساء اللواتي عرفتهن تقريباً كن يلحُحن لي أفضل مني . ومع ذلك ، فبوضعي لهن في هذه المنزلة ، كنت استفيد منهن اكثر من خدمتي لهن . كيف يستطيع المرء ان يفهم ذلك ؟

الحب الصادق مستثنى هنا بالطبـع — مرة او مرتين في القرن ، او اكثر او اقل ، قليلاً . امـــا بقية الوقت ، فليس هنالك غير الغرور والضيق . اما بالنسبة لي ، فـانني لم اكن الراهبة البرتغـالية على أي حال . ولست قاسي القلب ، كلا ، مطلقاً — بالعكس ، كنت فياضاً بالشفقة ، مستعداً دائماً لذرف الدموع . وانمـــا تتجه دوافعي العاطفية نحوي دائماً ، وتنصب مشاعري في الشفقة على نفسي . ولكن صحيحاً انني لم احب ابداً . لقد كان هنالك في حياتي حب كبير ، كنت انا

مركزه دائماً . ومن هذه الناحية ، وبعد مصاعب الشباب المحتومة ، صرت موضع الاهتمام مبكراً : وتحكمت الشهوانية وحدها في حياتي العاطفية . وكنت ابحث عن الاهداف التي تحقق لي اللذة والغزو فقط . ثم ان جسمي ساعدني على ذلك : وكانت الطبيعة كريمة معي . وكنت فخوراً بذلك جداً ، وقد وجدت فيه لذة كبيرة — دون ان اعرف الآن هل كانت تلك اللذة بدنية ام ارتكزت على الكبرياء الذاتي . ستقول بالطبع انني بدأت افخر ثانية . ولن انكر ذلك ، ولست أفخر لانني افعل ذلك ، وانما أفخر الآن بما كان حقيقياً .

على كل حال ، كانت شهوانيتي (ولاحدد نفسي بها) حقيقية بحيث انني كنت مستعداً للتخلي عن ابي وامي من اجل لذة عشر دقائق ، بل كنت مستعداً للحصول عليها ولو بكل مرارة . حقاً — خاصة من اجل لذة عشر دقائق ، واكثر من ذلك لو كنت اعرف انه لن تعقبها مغامرة اخرى . كانت لدي مبادئي ، بالتأكيد ، كأن تكون زوجة الصديق مقدسة . ولكنني كنت اكف بكل اخلاص ، قبل بضعة أيام من المغامرة ، عن الشعور بالصداقة للزوج . ربما لا يكون في وسعي ان اسمي هذا شهوانية ؟ ان الشهوانية ليست كريهة . دعنا نمضي اكثر في الامر ونسمي ذلك ضعفاً ، نوعاً من عجز اساسي عن رؤية اي شيء في الحب غير الشهوة . وبعد كل ذلك ، فان ذلك الضعف كان مريحاً . فبامتزاجه بقابليتي على النسيان ، صار اضمن لحريتي . وفي الوقت نفسه ، وبواسطة مظهر من مظاهر الصعوبة والاستقلال اللذين منحني اياهما ، فانه سهل علي الظفر بنجاحات اخرى . وكنتيجة لعدم كوني رومانتيكياً ، منحت العلاقة الغرامية شيئاً تستمر به . ان صديقاتنا

الاناث يشتركن مع بونابارت في القول بانهن يستطعن النجاح حيث يفشل الآخرون .

وفي هذا استطعت ، أيضاً ، ان اشبع شيئاً آخر بالاضـافة الى شهوانيتي : رغبتي في المقـامرة . كنت احب في النساء اولئك اللواتي يشتركن معي في لعبة ما ، لعبة تتميز بالبراءة على الاقل . وانت ترى انني لا استطيع احتمال السأم ، ولذلك فـانني اتذوق الامور الشاذة فقط في الحيـاة . وأية صحبة ، مهما كانت لامعة ، سرعان مـا تسحقني ، بينما لم اكن لاشعر بالسأم مع اللواتي كنت اميـل اليهن . يؤلمني ان اعترف بذلك ، ولكنني كنت ساتخلى عن عشرة احـاديث مع آينشتاين من اجل موعد مع فتـاة جميلة من فتيـات الكورس في الكنيسة . صحيح انني كنت سأحنّ في الموعد العاشر الى آينشتاين او الى كتاب جـاد . باختصار ، لم اكن لاهتم بالمشاكل الرئيسية الا في الفترات الواقعة بين انهماكاتي الصغيرة . وغالباً مـا كان يحدث ، أثناء وقوفي على جانب الطريق مع بعض الاصدقاء لمناقشة بعض الامور نقاشاً متحمساً ، ان اضيع اطراف النقاش الذي كنت قد بلغته ، لان امرأة فاتنة كانت تعبر الشارع في تلك الاثناء .

وهكذا كنت امضي في اللعبة . وكنت اعرف انهن لم يكن ميالات الى اولئك الذين يُفصحون عن الغرض بسرعة . فـلا بد ان يكون هنالك حديث اولا ، اهتمامات حبية ، كما يسمين ذلك . ولم اكن قلقاً بشأن الخطب ، لانني كنت محامياً ، ولا بشأن النظرات ، لانني كنت ممثلاً هاوياً اثناء فترة خدمتي العسكرية . وكنت غالباً ما اتبادل الادوار ، ولكن في المسرحية نفسها . هنالـك مثلاً مشهد في التمثيلية اللامفهومة

« الشيء الغامض » وعبارة : « ليس ذلك معقولاً ، فلم اكن اريد ان يجتذبني ذلك بالتأكيد ، بـل كنت ضجراً من الحب ، الخ .... » وكانت ُتمَثّلُ دائماً ، رغم انها من اقدم التمثيليات . كانت هنالك ايضاً خدعة السعادة الغامضة التي لم تمنحها اياك امرأة اخرى ، وقد لا يقود ذلك الى اي شيء - وذلك حقاً هو كذلك (لان المرء لا يستطيع ان يحمي نفسه اكثر (- ولكن يحدث ان ذلك يكون دائماً فريداً . وفوق ذلك ، فقد كنت افضل دائماً خطبة صغيرة كانت تحظى بالقبول دائماً ، وانا واثق ايضاً من انك سترحب بها . ان الجانب المهم في الفصل يكمن في الاعتراف المؤلم المستسلم بانني لم اكن شيئاً ، وانـه لم يكن الامر ليستحق ان يتورط معي احد ، وان حياتي كانت فيمكان آخر ، لا تمت بصلة لسعادة الحيـاة اليومية المألوفة - السعادة التي قد اكون سافضلها على اي شيء آخر ، ولكن الاوان قد فات . امـا بالنسبة لفوات الاوان هذا ، واسبابه ، فكنت اتكتم ، عالماً بأنه من الافضل دائماً ان يذهب المرء الى الفراش مصحوباً بالغموض ، ثم انني ، نوعاً ما ، كنت اصدق ما كنت اقوله . وكنت احيا دوري . ولن يدهشك ان شريكاتي كن دائماً يبدأن مثلي « بجس النبض » بحماسة . وكانت اشدهن حساسية تحـاول ان تفهمني ، وكان هذا يقودها الى الاستسلام الممزوج بالحنين المكتئب . واما الاخريات اللواتي كن يقنعن بمشاهدة مـا كان يبدو عـلي من احترام لقواعد اللعبة ، وحديثي اللبق قبـل ان ابدأ التمثيلية ، فقد كن يمضين بدون ابطاء نحو الواقع . وهذا يعني انني فزت - اضعاف ذلك ايضاً ، مـا دمت ، بالاضافة الى الاشتهاء الذي كنت اشعر به نحوهن ، ارضي حبي لنفسي عـبر تفحّصي في كل مرة لقواي الخاصة .

وكان هذا صحيحاً الى درجة انه اذا كانت بينهن من لا يُشبِعن الا قليلاً من شهوانيتي كنت احاول مع ذلك ان استأنف العلاقة معهن ، في فترات طويلة ، تساعدني في ذلك بلا شك تلك الرغبة الغريبة التي يثيرها الغياب والانهاك في الصلة المستعادة فجأة ، وكذلك لكي اعرف هل ان علاقاتنا ما تزال قائمة وانه من حقي انا وحدي ان ادعمها . وكنت احياناً اذهب الى حد جعلهن يقسمن الا يسلمنا انفسهن لاي رجل غيري لكي أطمئن مخاوفي من ذلك نهائياً . ولكن قلبي ، على كل حال ، لم يلعب اى دور في تلك المخاوف ، ولا خيالي . كان هنالك نوع معين من الادعاء متجسداً في شخصي بحيث كان يصعب علي ان اتصور ، برغم الحقائق ، ان امرأة كانت لي مرة يمكن ان تكون لاحد آخر على الاطلاق . ولكن العهد الذي اقسمن عليه حررني بينما كان يقيدهن . وحالما كنت اعرف انهن لن يكن لاي شخص آخر ، كنت استطيع ان اقرر قطع العلاقة – الامر الذى لولاه لكان ذلك مستحيلاً بالنسبة لي . وبقدر ما كان الامر يخصهن فانني كنت قد ضمنت لنفسي الحماية نهائياً وطمأنت قوتي وقتاً طويلا . غريب ، أليس كذلك ؟ ولكن الامر كان هكذا حقاً ، يا مواطني العزيز . ان بعضهن يصرخن : « احبني ! » وأخريات : « لا تحبني ! » ولكن نوعاً معيناً منهن ، بل اسوأهن وأتعسهن ، كن يصرخن : « لا تحبني ، ولكن كن مخلصاً لي ! »

. .

وما عدا ذلك فان الخلاص من المشاكل لا يكون مضموناً ، وعلى المرء ان يبدأ من جديد مع كل شخص جديد . وكنتيجة لبدء الامر من جديد مرات ومرات ، فان المرء يتعود على ذلك ، ويأتي الخطاب بدون

تفكير ويتدفق الفيض . وتجد نفسك في يوم من الايام وانـــت تأخذ دون ان تشتهي ذلك . صدقني ان الامتناع عن أخذ ما لا يشتهيه المرء هو ، بالنسبة لبعض الرجال على الاقل ، اصعب شيء في العالم .

وهذا هو ما حدث بالتالي ، ولا داعي لان اخبرك من هي ، مـا عدا انها كانت قد اجتذبتني ، دون ان تثيرني حقاً ، بطريقتها السلبية الحادة . لقد كانت تجربة مهروءة حقاً ، كما كان علي ان اتوقع ، ولكن لم تبق في نفسي اية تعقيدات ، وانما نسيتها بسرعة ولم ارها بعد ذلك . وقد ظننت انها لم تلاحظ اي شيء بل انها لم تكن لتتصور انه يمكن ان يكون لهـا رأي . ثم ان طريقتها السلبية كانت في نظري تفصلها عن العالم . وعلى كل حال ، فبعد بضعة اسابيع علمت انها قد اخبرت فتاة اخرى بنقائصي . وشعرت في الحـــال بانني كنت ضحية الخداع نوعاً ما ، وانها لم تكن سلبية كما ظننت ، وانه لم يكن يعوزها الادلاء بحكم . ثم هززت كتفي وتظاهرت بالضحك . بل انني ضحكت فعلاً ، فمن الواضح ان الحادثة لم تكن مهمة ، واذا كان هنالك اي مجال يكون التواضع فيه قاعدة ، أليس ذلك المجال هو الجنس ، بكل ما فيه من الامور غير المتوقعة ؟ ولكن لا ، فكل منا يحاول ان يتظاهر بالامور حتى حين نكون وحيدين . وبالرغم من انني هززت كتفي غير مكترث ، فمـــاذا كان سلوكي الحقيقي يا ترى ؟ لقـد رأيت المرأة ثانية بعد فترة قصيرة ، وفعلت كل مـا كان ضرورياً لاجتذابها واستعادتها ثانية . ولم يكن ذلك صعباً جداً ، لانهن لا يردن ايضاً ان ينتهين بالفشل . ومنذ ذلك الحين ، ودون ان اتعمد ذلـــك ، بدأت ، في الواقع ، باذلالها بكل طريقة . كنت اتخلى عنها ثم استعيدها واضطرها الى الاستسلام في

اوقات غير مناسبة ، واعاملها بكل وحشية ، بكـل طريقة ، بحيث انني بالنتيجة ارتبطت بها تماماً كما اتصور ارتبـاط السجان بالسجين . واستمر ذلك حتى اليوم الذي عبرت فيه عن امتناني بصوت عال لما كان يستعبدها ، وكان ذلك في خضم فوضى اللذة المتوترة المؤلمة . وفي ذلك اليوم نفسه بدأت ابتعد عنها . ونسيتها منذ ذلك الحين .

سأتفق معك ، برغم صمتك المؤدب ، في ان تلك المغامرة ليست جميلة جداً . ولكن فكر في حياتك فقط ، يا مواطني العزيز ! ابحث في ذاكرتك ، وربما ستعثر على قصة مشابهة ستخبرني بها فيما بعد . على كل حال ، كنت حين اذكر ذلك الامر اضحك ثانية . ولكن ذلك الضحك كان من نوع آخر ، يشبه تقريبـاً ذلك الضحك الذي سمعته خلفي على جسر الفنون . كنت اضحك من خطبي ومرافعـاتي في المحكمة . بل كنت اضحك من خطبي في المحكمـة اكثر من ضحكي من خطبي للنساء ، فلم اكن لاكـذب كثيراً على النساء . كانت الفطرة تتحـدث في سلوكي بوضوح ، وبدون تزييف . وعملية الجمـاع ، مثـلاً ، هي اعتراف . والانانية تصرخ عالياً ، والغرور يكشف عن نفسه ، والا فان الكرم الحقيقي يكشف عن نفسه ، وكنت في تلك القصة المؤسفة ، اكثر مما كنت في كل مغامراتي الاخرى ، أبلَغَ تعبيراً ممـا كنت أظن . لقد ذكرت من أنا وكيف كان في وسعي ان اعيش . وبرغم المظـاهر ، كنت اكثر قيمة في حياتي الخاصة – حتى حين (ربما يستطيع المرء ان يقول ، خاصة حين) تصرفت كما اخبرتك – ممـا كنت افعل تحليقاتي المهنية العظيمة حول العدالة والبراءة . وكنت على الاقـل حين ارى نفسي افعل ذلك مع الآخرين ، غير قادر على خداع نفسي بشأن حقيقة

طبيعتي . فليس هنالك شخص منافق في ملاذه – هـــل كنت قرأت ذلك ام انني افكر به شخصياً يا مواطني العزيز ؟

وهكذا ، فحين تفحصت المتاعب التي قاسيت منها أثناء فصم علاقاتي بامرأة – متاعب كانت تورطني في وساطات كثيرة – لم اكن ألوم رقة قلبي . فلم يكن ذلك هو الذي كان يضطرني حين كانت احدى عشيقاتي تسأم انتظار ذروة عاطفتنا وتتحدث عن التخلي عني . كنت انا الذي يقوم بالخطوة التالية في الحـــال ، وانا الذي يستسلم ، وانا الذي يكون بارعاً في التعبير ، اما بالنسبة للود ورقة القلب ، فقد كنت اثيرهما في النساء ، مجرباً في نفسي مظاهرهما فقط – وانما اكون مستثاراً قليلاً بهذا الرفض ، وقلقاً ايضاً بسبب أحتمال فقدان ود شخص ما . وكنت في بعض الاحيان اعتقد حقاً انني كنت اقاسي . ولكن الانثى الثائرة لم تكن تستطيع غير ان تترك لي انا مسألة التخلي عنها ونسيانها بدون مجهود ، كما كنت انسى وجودها حين تقرر ، بعكس ذلك ، ان تعود . كلا ، لم يكن حباً او كرماً ذلك الذي كان يوقظني حين اكون في خطر من ان اصبح موضع النسيان ، وانما كانت تلك هي الرغبة في ان اكون محبوباً وآخذ ما كنت في رأيي استحقه . وفي اللحظة التي اكون فيها محبوباً ، وتكون شريكتي منسية ثانية ، كنت أتـألق واحلق في ذروة الفتنة ، وازداد جاذبية .

لأقلْ ايضاً ، بالاضافة الى ذلك ، انني في اللحظة التي احصل فيها على ذلك الود كنت اشعر بعبئه . وفي لحظـــات استيائي كنت اقول لنفسي ان الحل المثـــالي هو في موت الشخص الذي كنت مهتماً به ولكن موتهـــا ، من ناحية ، يكون قد ثبت علاقتنا ورسخها ، ومن

الناحية الاخرى ، يكون قد ازال قسريتها بيد ان المرء لا يستطيع ان يحن الى موت اي شخص ، او حتى في حـالة التطرف ، ان يخلي الكوكب من سكانه ليستمتع بحرية لا يمكن تصورها بغير ذلك . كانت ميولي ضد ذلك ، وكذلك كان حبي للبشرية .

العاطفة العميقة الوحيدة التي كنت اشعر بها احيانـاً في مثل هذه الامور هي الشكر ، حين يكون كل شيء سائراً سيراً حسناً ، وحين يكون في وسعي ان استمتع ، وليس فقط بالطمأنينة ، وانما بالحرية في ان افعل ما اشاء – ولم اكن اكثر طيبة ومرحاً مع النساء اكثر من طيبتي ومرحي مع تلك التي اكون ، قبل ان اراهـا ، قد غـادرت فراش امرأة اخرى . فكأنني كنت أحوّل الى الاخرى الدَيْنَ الذي كنت أشعر به نحو الاولى . وعلى اي حـال ، ومهما كانت مشاعري تلوح مرتبكة ، كانت النتيجة التي احققها واضحة : فقد كنت احتفظ بالود في مكان سهل المتناول ، لكي استخدمه حين كنت احتـاج اليه . وانا اقر بأنني استطيع ان اعيش سعيداً ، بشرط ان تكون كل النساء على هذه الارض ، او اكبر عدد منهن ، متجهـات نحوي ، في قلق أبيد ، خاليات من الحياة المستقلة ومستعدات للاستجابة لندائي في أيـة لحظة ، باختصار ، يكن محكوماً عليهن بالعقر حتى اليوم الذي اتنازل فيه بالعطف عليهن . وباختصار ايضـاً ، فلكي اعيش سعيداً ، كان من الضروري للمخلوقات التي كنت اختارها ان لا تعيش اطلاقاً . فعليهـا ان تأخذ حياتها ، بصورة متقطعة ، بأمرٍ مني فقط .

آه ، انني لا اشعر بأية قناعـة ، صدقني ، في اخبارك بهذا . فحين افكر في ذلك الوقت الذي كنت فيه اطلب كل شيء بدون ان

ادفع شيئاً ، حين كنت استخدم كل ذلك العدد من الناس في خدمتي ، حين كنت اضع الناس في الثلاجة ، اذا جاز لي ان اقول ذلك ، لكي احصل عليهم حين أشــاء وفي اليوم الذي يعجبني ، لا اعرف كيف اسمي الشعور الغريب الذي يتملكني . أليس هو الخجل ؟ ربمــا ؟ اخبرني ، يا مواطني العزيز ، الا يَخِزُ الخجل قليــلاً ؟ يفعل ذلك ؟ حسناً ، ربما يكون ذلك خجلاً ، اذن ، او واحداً من تلك الانفعالات الحمقاء التي تتصل بالشرف . يلوح لي على اي حـال ان ذلك الشعور لم يتركني منذ المغامرة التي عثرت عليها في قعر ذاكرتي ، التي لا استطيع بعد الآن ان اؤجل اخبارك بهـا ، رغم تحولاتي في الحديث ، والجهود الخارقة التي ارجو ان تكون قد لمستها في شخصي .

انظر ، لقد انقطع المطر ! كن لطيفاً وسر معي الى البيت . انني منهك انهاكاً غريبــاً ، ليس لانني تحدثت بكل هذا ، ولكن لمجرد التفكير في المزيـد الذي يجب علي ان اقوله . آه ، حسناً ، ستكفي بضع كلمات لاخبرك باكتشافي الاساسي . ما هي فائدة ان اقول اكثر على كل حال ؟ فلكي يقف التمثال عارياً يجب ان تنطلق عنه الخطب الجميلة كما ينطلق عنه سرب الحمائم . تلك الليلة بالذات في تشرين الثاني ، قبل عامين او ثلاثة اعوام من ذلك المساء الذي ظننتُ انني سمعت فيه ذلك الضحك خلفي ، كنت عائداً الى الضفة اليسرى والى بيتي بطريق بونت روايال . وكانت الساعة هي الواحدة بعد منتصف الليل ، وكان يهطل مطر خفيف ، او رذاذ ، وينتشر الناس في الشارع . وكنت قد تركت عشيقة لتوي ، ولا بد انهـــا قد نامت في الحين . وبينما كنت استمتع بالتمشي ، متخدراً قليلاً ، كان جسمي يهدأ ويرتوي بفيض من

الدم الهادىء هدوء الرذاذ الهاطل . وعبرت الجسر ومررت خلف قوام شخص كان منحنياً على الحافلة ، وكان يلوح عليه انه كان يحملق في النهر . وحين امعنت النظر ، رأيت فتاة نحيفة ترتدي السواد . وكان ظاهر رقبتها ، بارداً رطباً بين الشعر الاسود وياقة المعطف ، يثيرني . ولكنني مضيت في طريقي بعد تردد دام لحظات . وفي نهاية الجسر تبعت الرصيف نحو سان ميشيل حيث كنت اسكن . ولم اكن قد سرت اكثر من خمسين خطوة حين سمعت الصوت – الذي ، بالرغم من المسافة ، لاح عالياً بصورة مرعبة ، في صمت منتصف الليل – صوت جسم يرتطم بالماء . ووقفت بغتة ، ولكن دون ان استدير الى الخلف . وسمعت في الحال تقريباً صراخاً تكرر عدة مرات ، وكان ينحدر مع التيار ، ثم انقطع فجأة . ولاح الصمت الذي تبع ذلك ، حين سكن الليل ووجف أيضاً ، أبيداً . واردت ان اركض ، ومع ذلك فانني لم اتحرك . وكنت ارتعد ، واعتقد ان ذلك كان بسبب البرد والصدمة . وقلت لنفسي انني يجب ان اسرع ، وشعرت بضعف لا يقاوم يسيطر علي . لقد نسيت ماذا كان تفكيري آنذاك . « فات الاوان ، أبعد من المستطاع ... » او انه كان شيئا مثل ذلك . وكنت ما ازال اصغي بينما كنت واقفاً بلا حراك . ثم مضيت في طريقي ، ببطء ، تحت المطر . ولم اخبر احداً بذلك .

ولكن ، ها نحن هنا . ها هو بيتي ، ملجئي ! غداً ؟ أجل ، اذا اردت . اود ان آخذك الى جزيرة ماركن لترى الزويدرزي . دعنا نتقابل في الحادية عشرة في حانة مدينة المكسيك . ماذا ؟ تلك المرأة ؟ آه لست اعرف . لست اعرف حقاً ، فلم اقرأ الصحف في اليوم التالي او في الايام الاخرى .

قرية لعب ، أليست كذلك ؟ لا ينقص هذا المكان شيء من العراقة والخيال ! ولكنني لم آت بك الى هذه الجزيرة من اجل ذلك ، يا صديقي العزيز . فكل شخص يستطيع ان يريك اغطية رأس ريفية واحذية خشبية وبيوتاً مزوقة يدخن فيها الصيادون تبغاً مختارا ، وتحيط بهم رائحة الاثاث . انني احد الناس ، من الناحية الاخرى ، الذين يستطيعون ان يروك الامور الهامة هنا حقاً .

لقد بلغنا السد ، وعلينا ان نتتبعه لنبتعد ما في وسعنا عن هذه البيوت الساحرة اكثر مما يجب . ارجوك ، لنجلس هنا ، حسنا . ما هو رأيك ؟ اليس هذا المنظر اجمل المناظر الطبيعية السلبية ؟ انظر على يسارك الى تلك الكومة من الرماد التي يسمونها هنا تلا ، والسد الرمادي على اليمين ، والساحل الازرق الشاحب عند اقدامنا ، وامامنا البحر بلون محلول الجير المخفف ، بينما تعكس السماء الشاسعة صفحة الماء عديمة اللون . جحيم خانقة مشبعة بالرطوبة حقاً ! كل شيء أفقي ، دون ان يكون هنالك اي تغيير يريح النظر ، والفضاء عديم اللون ، والحياة ميتة . اليس ذلك هو العدم التام واللاشيئية الدائمة ، واضحين للعين ؟ ثم انه ليس هنالك اي بشر ، لا بشر هنالك ! انا وانت نواجه الكوكب المهجور اخيراً . السماء حية ؟ انت على حق يا صديقي العزيز . انها تتكثف وتتجوف وتطلق اعمدة دوارة من الريح وتغلق بوابات

سحابية . تلـك هي الحمـائم . الم تلاحظ ان سماء هولنده تمتلىء بملايين الحمائم ، التي لا يراها احد بسبب ارتفاعها ، وهي تصفق اجنحتها وتعلو وتهبط جماعات ، وتملأ الفضاء السماوي بكتل كثيفة من الريش الرمادي الذي تنطلق به الريح هنا وهنالك ؟ ان الحمائم تنتظر هنالك في الاعالي طيلة ايام السنة . وهي تدور فوق الارض وتنظر الى الاسفل وتود لو تهبط . ولكن ، ليس هنالك غير البحر والقنوات ، والسطوح المغطاة بلوحات الدكاكين ، دون ان يكون هنالك رأس تحط عليه .

انت لا تفهم ما اعني ؟ سأقر بانها كي . لقد نسيت الموضوع الذى كنت اتحدث فيه . واضعت ذلك الوضوح الذي كان يمتدحه الاصدقاء في شخصي . انني اقول « اصدقائي » ، ايضاً ، بصورة تقليدية ، وليس لدى الان اي اصدقاء ، وانما لدي فقط شركاء في الاثم . ولكي اعوض عن ذلك ، زاد عددهم ، انهم البشر جميعاً . وبين هؤلاء البشر ، انت اول الجميع . فالذي هو قريب وفي متناول اليد هو الاول دائماً . وكيف لي ان اعرف انـه ليس لدى اصدقاء ؟ ان ذلـــك سهل جدا . لقد اكتشفته في اليوم الذى فكرت فيه بالانتحار لاعبث بمشاعرهم ، لاعاقبهم نوعاً ما . ولكن ، اعـاقب من ؟ سيندهش البعض ، ولن يشعر احد بأنه عوقب . لقد ادركت انه لم يكن لدي اصدقـاء . وحتى لو كان لدي اصدقاء فما كنت لاصبح في حال افضل . ولو كنت قـــادراً على الانتحار بحيث استطيع ان ارى ما سيفعلونه بعد ذلك فان الامر كان سيستحق ان انتحر من اجله . ولكن اعماق الارض مظلمة يا صديقي العزيز ، والتابوت سميك والكفن يمنع النور . هنالك عيون الروح — بالتأكيد — اذا كانت هنالك روح وكان لها عيون ! ولكنك ترى اننا

لسنا متأكدين ولا يمكننا ان نتأكد . والا فسيكون هنالـــك حل ، وسيكون في وسع المرء ان يـكون جادا . ان البشر لا يقتنعون ابداً باسبابك وصدقك وجدية عذابك الا حين تموت . ومـا دمت حياً فان قضيتك مغمورة في الشك ، وليس لـك اي حق في الحصول على غـير شكوكهم . وهكذا فاذا كان هنالك اي يقين من ان المرء يستطيع ان يستمتع بالمشهد ، فـان الامر سيستحق ان يثبت لهم الامور التي ليسوا على استعداد لتصديقها وهكذا يدهشهم . ولكنك تنتحر ، ومـاذا يهم اذا كانوا سيصدقونك ام لا ؟ فلن تكون موجوداً لتشهد دهشتهم واسفهم (العابر على افضـله) ، ولن تشاهد ، كما يحلم كل انسان ، حتى ولا جنازتـــك . ولكي لا تكون قضية غامضة ، يجب عليك الا تكون موجوداً ، هذا هو كل شيء .

ثم ، اليس الامر افضل هكذا ؟ سنتعذب كثيراً بسبب لا اكتراثهم . لقد قـالت فتاة لابيها الذى منعها من الزواج بخاطب ممتاز : « ستدفع ثمن ذلك ! » وانتحرت . ولكن الوالد لم يدفع شيئاً . لقد كان يحب الصيد . وبعد ثلاثة اسابيع عاد الى النهر – لينسى ، كما قال . وقد كان محقاً ، ونسي . والحقيقة هي ان عكس ذلك فقط هو ما كان سيثير دهشتنا حقاً . انت تظن انك تموت لتعاقب زوجتك ، بينما انت في الواقع تطلق سراحها . ومن الافضل لك ان ترى ذلك . وبالاضافة الى ذلك دعنا لا نبحث عبثاً . انني احب الحياة – هـــذا هو ضعفي الحقيقي . احبها بحيث انني لا استطيع ان اتصور ما هو ليس بحياة . ومثل هذه اللهفة تتميز بشيء من الرعاعية ، ألا تعتقد ذلك ؟ فالارستقراطية لا تستطيع ان تتصور نفسها بدون بعض البعد الذي يحيط بها وبحياتها .

والمرء يموت اذا كان ذلك ضرورياً ، وهو ينكسر اكثر من ان ينحني . ولكنني انحني لانني استمر في حب نفسي . فبعد كل ما اخبرتك به ، ماذا تظنني قد طورت في نفسي ؟ مثلاً ؟ سأماً من نفسي ؟ هــيا ، هيا ، لقد كنت اسأم من الآخرين على الاخص . وقــد كنت اعرف نقائصي وآسف لها حقاً . ولكنني مضيت في نسيانها بعناد مستحق . واستمر اتهام الآخرين لي ، بعكس ذلك بصورة دائمة في قلبي . بالطبع – هل فوجئت بذلك ؟ تظن انه غير منطقي ؟ ولكن المسألة هي ألا نظل منطقيين . المسألة هي ان نتملص ، وفوق ذلك – اجل ، فوق ذلك ، المسألة هي ان نتخلص من حكم الآخرين . ولست اعني بذلك تجنب العقاب . لان العقاب بدون حكم امر يمكن احتماله . وله اسم ، فضلاً عن هذا ، يضمن براءتنا : انه يدعى سوء الحظ ، كلا ، بالعكس ، انها مسألة التملص من الحكم ، وتجنب ان يكون المرء محكومــاً على الاطلاق ، دون ان ينطق احد بالحكم عليه . ولكن المرء لا يستطيـع ان يتملص من ذلك بسهولة . فنحن اليوم مستعدون للحكم قدر استعدادنا للجماع . مع هذا الاختلاف : انــه ليس هنالك نواقص نخشاها . واذا كنت تشك في ذلك ، استمع الى حديث المائدة ، اثناء شهر آب ، في الفنادق الصيفية حيث يتلقى زملاؤنا المواطنون الكرام علاجاً من السأم . واذا كنت ما تزال متردداً في الاستنتاج ، اقرأ كتابات رجالنا العظام الآن . او لاحظ عائلتك ، وسيعلمك ذلك الكثير . يا صديقي العزيز ، دعنا نمنحهم اي عذر ، مهما كان صغيراً ، ليحكموا علينــا ! والا فسيتركوننا اشلاء . ونحن مضطرون الى اتخــاذ الاحتياطات التي يلجــأ اليها مروضوا الحيوانات . فاذا كان المروّض سيء الحظ قبل ان يدخل القفص ، فيجرح نفسه بينما هو يحلق ذقنــه ، فأي حفل سيكون

للحيوانات الوحشية ! لقد ادركت هذا في اللحظة التي ساورتني فيها الشكوك من انني لم اكن موضع الاعجاب الى ذلك الحد . ومنذ ذلك الحين لم اعد موضع ثقة . ولما كنت انزف قليلاً ، فلم يكن هنالك اي مهرب لي ، لان الوحوش ستلتهمني .

وظلت علاقاتي بمعاصريّ كذلك ، ومع هذا فقد كانت شاذة . ولم يتغير اصدقائي ، وكانوا في بعض الاحيان يستمرون في امتداح التوافق والطمأنينة اللذين كانوا يجدونها في صحبتي ولكنني كنت ادرك النشاز والاضطراب اللذين كانا يملآني . وكنت اشعر بأنني صرت سهل المأخذ، معرضاً لاتهام الناس . ولم يعد زملائي في نظري اولئك الناس المحترمين الذين كنت معتاداً عليهم . وتحطمت الدائرة التي كنت مركزها واصطفوا في صف يشبه صف الحكام على منصة القضاء . والحق انني في اللحظة التي عرفت فيها ان هنالك شيئاً يصدر حكمه علي ، ادركت انه كان في الناس ميل لا يقاوم لاصدار الاحكام . اجل ، كانوا هنالك كما كانوا من قبل ، ولكنهم كانوا يضحكون . او انه قد لاح لي ان كل واحد كنت اواجهه كان ينظر اليّ بابتسامة خفية . وكان في نفسي ايضاً ، في ذلك الحين ، انطباع بأن الناس كانوا يدفعونني والحق انني تعثرت مرتين او ثلاثاً حين كنت ادخل المحلات العامة . بل انني سقطت على الارض في احدى المرات . ولم يستغرق الديكارتي الفرنسي الكامن في نفسي وقتاً طويلاً ليقبض على نفسه ويرجع كل تلك الحوادث الى القوة الوحيدة المعقولة — اي الصدفة . ومع ذلك فقد ظلت الشكوك في محلها .

واستثير اهتمامي مرة ، ولم يكن صعباً بالنسبة لي ان اكتشف انه كان لي اعداء في مهنتي اولاً ، وكذلك في حياتي الاجتماعية . كنت قد

اسديت يداً بيضاء للبعض ، وكان هنالك آخرون ممن كان يجب عليّ ان انعم عليهم . وكان ذلك كله طبيعياً طبعاً ، وقد اكتشفته دون ان احزن كثيراً . ومن الناحية الاخرى ، فقد كان اصعب وأشد ألماً بالنسبة لي ، ان اقر بأنه كان لدي اعداء بين الناس لم اكن اعرفهم الا قليلاً ، وانني لم اكن اعرفهم ابداً . كنت اعتقد دائماً ، بالذكاء الذي بينته لك ، ان اولئك الذين لا يعرفونني لا يمكن ان يقاوموا حبهم لي فيما لو عرفوني . كلا أبداً ! لقد واجهت العداء خاصة بين اولئك الذين كانوا يعرفونني معرفة بعيدة دون ان اعرفهم شخصياً . ولا شك في انهم كانوا يظنونني اعيش حياة كاملة ، مكرسة للسعادة ، وهذا امر لا يمكن اغتفاره. ان ملامح النجاح ، حين تلوح بطريقة معينة ، تثير سخط الحمار . وكذلك فان حياتي كانت مليئة الى حد الانفجار . وبسبب ضيق الوقت ، كنت ارفض كثيرا من العروض . وكنت بعد ذلك انسى رفضي للسبب نفسه . وكانت تلك العروض تُقدم لي من اشخاص لم تكن حياتهم كاملة ، ولهذا السبب بالذات فان هؤلاء كانوا يتذكرون رفضي .

وهكذا ، ففي النهاية ، ولآخذ مثلاً واحداً فقط ، صارت النساء يكلفنني غالياً. فالوقت الذي كنت اكرسه لهن لم اكن استطيع ان اخصصه للرجال، ولم يكن هؤلاء يغتفرون لي ذلك ؟ فهل هنالك طريقة للخروج من ذلك؟ ان نجاحاتك وسعادتك تغتفران لك فقط اذا كنت توافق بكرم على اشراك الآخرين معك. ولكن، لكي تكون سعيداً فانه يجب عليك الا تكون مهتماً بالآخرين اكثر مما يجب . وبالنتيجة فلا مهرب هنالك . فاما ان تكون سعيداً ومحكوماً ، او مبرءاً وشقياً . فاما بالنسبة لي فان العدالة كانت اعظم : لقد حكم علي بسبب النجاحات الماضية . وقد عشت زمناً طويلاً

وأنا اتوهم ان الجميع كانوا متفقـــين معي ، بينما امطرت علي الاحكام والسهام والسخرية من كل جانب ، وكانت كلها غير مكترثة ، باسمة . وحين انتبهت الى ذلك صرت سهلاً ، واستقبلت كل الجراح ، في الوقت الذي كنت افقد فيه كل قواي في الحال . وبدأ الكون كله يسخر مني .

وهذا هو ما لا يستطيع احتماله اي رجل (مـا عدا اولئك الذين ليسوا بأحياء حقاً – بعبارة اخرى : الحكماء) . والحقد هو المقابـل الوحيد الممكن . فالناس يسرعون في الحكم لكي لا يحكم عليهم انفسهم . ماذا تتوقع ؟ ان الفكرة التي تحضر الانسان حضوراً طبيعياً ، وكأنهـا صادرة من صميم طبيعته ، هي تلك القائلة ببراءته ، ومن هذه الزاوية فاننا جميعاً مثل ذلك الفرنسي في معتقـل بوخنوالد النازي الذي اصر على تسجيل شكوى عند الكاتب الذي كان هو نفسه سجيناً والذي كان يسجل وصوله . شكوى ! وضحك الكاتب ورفقاؤه وقالوا : « لاجدوى في ذلك ايها العجوز . انك لا تسجل الشكاوى هنا » . وقال الفرنسي : « ولكنك ترى يا سيدي ان قضيتي استثنائية . انا بريء ! »

نحن جميعاً قضايا استثنائية . ونحن جميعـــاً نود ان نستأنف ضد شيء ما ! وكل واحد منا يصر على براءته بأي ثمن ، حتى اذا كان عليه ان يتهـم الجنس البشري كله والسماء نفسها . وانت لـــن تبهج شخصاً اذا مدحته على الجهود التي صار بواسطتها كريماً او ذكياً . ومن الناحية الاخرى ، فانه سيغتبط اذا ابديت اعجابك بكرمه الطبيعي . واذا عكسنا ذلك ، وجدنا انك اذا اخبرت مجرماً بأن جريمته ليست بسبب طبيعته او مزاياه ، ولكن بسبب الظروف السيئة ، فانه سيكون شاكراً لك جداً . وفي اثناء خطبة المحامي ، يجد الفرصة للبكاء . ومع

ذلك فليست هنالك اية مزية في ان يكون المرء اميناً او ذكياً بالمولد ، تماماً كما ان المرء ليس مسؤولاً عن كونه مجرماً بطبيعته وانما بظروفه . ولكن هؤلاء الانذال يبحثون عن المزايا الحسنة ، اي اللامسؤولية ، وهم يدعون بلا خجل بمبررات الطبيعة او بأعذار الظروف ، حتى اذا كانت متناقضة . والامر الضروري هو ان هؤلاء يجب ان يكونوا ابرياء ، كما ان فضائلهم بسبب كونها هبة طبيعية من المولد يجب الا تكون موضع التساؤل ، وان افعالهم السيئة التي تسببها الظروف السيئة الآنية يجب الا تكون مؤقتة . وكما اخبرتك ، فالامر لا يعدو التملص من الحكم . ولما كان التملص منه والحصول على الاعجاب والعذر لطبيعة المرء في وقت واحد ، صعباً ، فان الجميع يحاولون ان يكونوا اغنياء . لماذا ؟ هل سألت نفسك يوماً ؟ من اجل القوة ، طبعاً . ولكن ذلك هو على الاخص لان الثراء يحميك من الحكم عليك مباشرة ويبعدك عن جمهور النفق ويضعك في سيارة صقيلة الحواشي ، ويعزلك في حدائق واسعة مسورة ، وعربات خاصة ، ومقصورات من الدرجة الاولى . الثراء ، يا صديقي العزيز ، ليس تبرئة تماماً ، وانما هو عفو ، وهذا هو دائماً امر يستحق الاخذ .

قبل كل شيء ، لا تصدق حين يسألك اصدقاؤك ان تكون مخلصاً لهم . انهم يرجون فقط ان تشجعهم على الرأي الحسن الذي يرونه عن انفسهم وذلك بأن توفر لهم التأكيد الاضافي الذي يجدونه في وعدك لهم بالاخلاص . كيف يمكن ان يكون الاخلاص شرطاً للصداقة ؟ ان حب الحقيقة بأي ثمن هو ميل لا يبقي على شيء ولا شيء يقاومه . انه من الشرور ، وهو يكون في بعض الاحيان من الامور المريحة ، او

انه يكون انانية . ولهذا ، فاذا وجدت نفسك في ذلك الموقف فـلا تتردد : عد بأن تقول الحقيقة . ثم الكذب بعد ذلك قدر استطاعتك . ذلك لانك ستشبع رغبتهم الخفيـة وفي الوقت نفسه تبرهن برهانـاً مضاعفاً على ودك لهم .

وهذا صحيح الى درجة اننا نادراً مـا نثق باولئك الذين هم افضل منا . وانما نميل اكثر الى الفرار من صدقهم . وغالباً ما نعترف ، من الناحية الاخرى ، لأولئك الذين هم مثلنا والذين يقاسموننا مـا بنا من ضعف . وهكذا فنحن لا نريد ان نجعل انفسنا افضل او ان يجعلنا الآخرون افضل ، لاننا يجب ان نخضع اولاً لحكم يثبت انه ينقصنا شيء مـا . ونحن نفضل فقط ان نكون موضع الشفقة وان نلقى التشجيع في الاتجاه الذي نكون قد اخترناه . وباختصار ، نحن نريـد في الوقت نفسه ان نكف عن كوننا آثمين ، دون ان نبذل مجهوداً لتنقية نفوسنا . ليس فينا ما يكفي من السخرية ، كما ليس فينا ما يكفي من الفضيلة . وتنقصنا الطاقة الشريرة كما تنقصنا الطاقة الخيرية . اتعرف دانتي حقاً ؟ يا للشيطان ! انت اذن تعرف ان دانتي يقبل فكرة الملائكة المحـايدين في المعركة بين الله والشيطان ، وهو يضعهم في اطراف الجحيم ، وهذه المنطقة هو نوع من المدخل المبدئي الى جحيمه ، ونحن فيهـا يا صديقي العزيز .

الصبر ؟ ربما تكون على حق . فـان انتظار يوم الحساب الاخـير يتطلب صبراً . ولكن حقيقة الامر هي اننا على عجل من امرنا . نحن على عجل حقاً بحيث اضطررت الى جعل نفسي قاضياً تائبـاً . وعلى كل حال ، فقد كان علي اولاً ان اعرف كيف اتصرف بالنسبة لاكتشافاتي ،

واضع نفسي في مستوى ضحك المعـــاصرين . ومنذ المساء الذي نودي فيه علي – فقد نودي علي فعلاً – كان علي ان اجيب ، او ابحث عن الجواب على الاقل . ولم يكن ذلك سهـــلاً ، لانني ظللت اتعثر بعض الوقت . كنت سأتعلم من تلك الضحكة الدائمـة والضاحكين ، اولاً ، كيف ارى في اعماقي بوضوح واكتشف اخيراً انني لم اكن بسيطاً. لا تبتسم، فهذه الحقيقة ليست بسيطة كما تلوح لك . فالامور التي نسميها حقـائق اساسية هي تلك التي نكتشفها بعد ان يكتشفها الآخرون .

ومهما كان ذلك ، فبعـــد البحث الدقيـق في نفسي ، خرجت بالازدواجية الاساسية في الكائن البشري . ثم ادركت ، كنتيجة لغوصي في ذكرتي ، ان التواضع ساعدني على التـــألق ، والخضوع اعانني على السيطرة ، والفضلية شجعتني على الطغيان . وكنت أشن الحرب بالطرق السلمية ، وبالتالي كنت احقق عبر الوسائل التي لا تلوح ذات علاقـــة بمصالحي كل ما كنت أشتهيه . فلم اكن لاشكو ، مثلاً ، من ان احداً لم يكن يكترث ليوم عيد ميلادي . بل ان الناس كانوا يندهشون ، معجبين نوعاً مـــا ، بسبب حصافتي بهذا الخصوص . ولكن سبب لا اكتراثي كان اشد حصافة من ذلك كله : لقد كنت احن الى ان اكون منسياً لكي يكون في وسعي ان اشكو لنفسي ، وقبل عـــدة ايام من ذلك التاريخ الكبير ، (الذي كنت اعرفه جيداً) ، كنت حذرا ، متلهفاً الى ألا أدع شيئاً يبدر مني فيثير انتبـاه اولئك الذين كنت اعتمد على عدم يقظتهم ، او ببعث ذاكرتهم (ألم احاول مرة ان امضي الى حد تغيير تقويم احد اصدقائي ?) وحين احصل على الوحـدة التـــامة ، استطيع ان استسلم لمتعة التأسف الذاتي التي تتصف بالرجولة .

وهكذا فان ظاهر جميع فضائلي لم يكن له غير باطن اقل قيمة . صحيح ان نقائصي كانت تفيدني من ناحية اخرى . هنالك مثلاً الضرورة التي كنت احس بها لاخفاء الجانب الشرير من حياتي ، تلك الضرورة التي منحتني ملامح باردة تـــلوح وكأنها ملامح الفضيلة ، كما ان لا اكتراثي جعلني محبوبا ، وادت انانيتي الى كرمي ، وسأتوقف هنا ، لان احصاء عدد كبير من هذه المتناقضـــات سيريك المسألة التي اريد ان اوضحها . وبالرغم من ان مظهري الخارجي كان خشناً الا انني لم اكن استطيع ان اقاوم دعوة من امرأة لتنـــاول قدح شراب ! وكن يعتبرنني نشطاً ، حيوياً ، كما ان الفراش كان مملكتي . وكنت اعلن عن وفائي ، ولست اظن ان هنالك شخصاً واحداً احببته ولم اخنه . ولكن خيـــاناتي لم تقف في طريق وفائي بالطبع . وكنت انجز الاكداس الهائلة من العمل خلال فترات خمولي المتتابعة ، ولم اكف عن مساعدة جاري ، والفضل في هذا يعود الى استمتاعي به . ولكنني مهما اعدت هذه الحقائق على نفسي فـــانها لم تكن لتعطيني الا تعزية سطحية . كنت في صباح بعض الايام اثير القضية ضد نفسي بصورة كاملة ، واصل الى انني كنت افضل في الاحتقار من اي شيء آخر . فكان النـــاس الذين ساعدتهم اكثر من الاخرين هم اولئـــك الذين كنت احتقرهم اكثر . كنت ابصق يومياً في وجوه كل العميان ، بطريقة مشبعة بالمجاملة والثبات المحمل بالعاطفة .

اخبرني بصراحة ، هل هنالك اي عذر لي ? هنالك عذر احد ، ولكنه شرير الى درجة انني لا استطيع ان آتي به . وعلى اي حال ، فها هو : لم يكن في وسعي على الاطلاق ان اعتقد بـــأن شؤون البشر هي من الامور الجدية ، ولم تكن لدي اي فكرة عـــن مكمن الأمور

الجدية ، عدا معرفتي ان تلـك الامور لم تكن موجودة ضمـن كل ما كنت اراه حولي – فقد لاح لي ذلك لعبة ممتعـة وحسب ، او مملة . هنالك حقاً جهود ومعتقدات لم يكن في وسعي ان افهمها . وكنت دائماً انظر بدهشة ، وببعض الشك ، الى تلك المخلوقات الغريبة التي كانت تموت من اجل المال ، وتهلك يأساً بسبب ضياع « مركز » او تضحي بنفسها بطريقة سامية عالية من اجل رفاه عائلتها . كان في وسعي ان افهم اكثر من ذلك الصديق الذي قرر ان ينقطع عن التدخين والذي استطاع ان ينجح في ذلك بواسطة الارادة المجردة . وفي صباح احد الايام فتح الصحيفة وقرأ انه قد تم تفجير القنبلة الذرية الاولى ، ولما علم بما احدثته من نتائج باهرة ، هرع الى دكان التبغ في الحال .

كنت في بعض الاحيان اتظاهر بأخذ الحياة مأخذاً جدياً . ولكن الحماقة الكامنة في تلك الجدية كانت سرعان ما تصيبني فأمضي في لعب دوري قدر استطاعتي . كنت العب دور القادر على الامور ، الذكي ، الفاضل ، المتمدن ، المصدوم ، الممعن في الرغبات ، المجبول على الشعور بالرفقة مع الآخرين ، الواعظ ... باختصار ، ليست هنالك حاجة للاستمرار في ذلك . فلا بد انك ادركت انني كنت مثل هؤلاء الهولنديين الذين هم هنا دون ان يكونوا موجودين هنا . كنت غائباً في اللحظة التي كنت اشغل فيها اكبر حيز ممكن من الفراغ . ولم اكن صادقاً في حياتي ولا متحمساً ، عدا حين كنت امثل في التمثيليات التي كنا نقيمها لمتعتنا الخاصة . وفي الحالتين ، كانت هنالك قواعد للعبة ، غير جادة ، وانما كنا نستمتع ببراعاتها وكأنها كانت كذلك . وحتى الآن ، فان حفلات ايام الآحاد في الساحات الرياضية الحافلة بالناس ، وفي المسرح ، الذي

احبه بأشد الاندفاع ، هي الاماكن الوحيدة في العالم التي اشعر فيها بالبراءة.

ولكن من الذي سيعتبر مثل هذا الموقف مشروعاً في دنيا الحب والموت واتعاب الفقراء ؟ ومع ذلك ، فماذا يمكننا ان نفعل بشأن ذلك ؟ يمكنني ان اتصور حب ايزولده في القصص فقط ، او على خشبة المسرح . كان الناس يلوحون لي في بعض الاحيان ، حين يكونون على فراش الموت ، مقتنعين بادوارهم . وكانت العبارات التي يتحدث بها زبائني المساكين تقع على مسمعي بطريقة تناسب النموذج ذاته . وهكذا ، فلما كنت اعيش مع البشر دون ان اشاركهم في اهتماماتهم ، لم يكن في وسعي ان أؤمن بالالتزامات التي كنت افرضها على نفسي . كنت مجاملاً وكسولاً بحيث كان في وسعي ان اعيش بنسبة ما كان متوقعاً مني في مهنتي وعائلتي ، او حياتي المدنية . ولكنني كنت افعل ذلك كل مرة بشيء من اللاكتراث الذي كان يفسد كل شيء . لقد عشت حياتي كلها وفق قانون مزدوج . وكانت اشد افعالي جدية هي في الغالب تلك التي كنت اقل اشتراكاً فيها . ألم يكن ذلك ، بعد كل هذا ، السبب في عدم استطاعتي منح الغفران لنفسي ، بالاضافة الى اخطائي ، الامر الذي جعلني اثور بأشد العنف ضد الحكم الذي كنت اشعر به يتكون في نفسي وحولي ، والذي اضطرني الى البحث عن مهرب ؟

استمرت حياتي فترة من الزمن في مظهرها الخارجي وكأن شيئاً لم يتغير . كنت على القضبان ، منطلقاً الى الامام ، وازداد مديح الناس لي ، وكأن ذلك كان مقصوداً . وهذا هو بالضبط مصدر المتاعب . انت تذكر جيداً المثل الذي يقول : « الويل لك حين يتحدث الناس

جميعاً بالخير عنك ! « آه ، ان قائل هذه العبارة يتحـــدث بالحكمة ! الويل لي ! وهكذا ، فان الماكنة بدأت تضطرب وتتوقف احياناً دون ان يكون لذلك تفسير .

وبعد ذلـــك انبثق التفكير في الموت في حياتي اليومية ، وبدأت اقيس السنوات التي تفصلني عن نهايتي ، وافتش عن امثلة مشابهة لي بين اولئك الذين هم في مثل عمري والذين كانوا موتى في ذلك الحين . وقد عذبني التفكير في انني قد لا اجد الوقت الكافي للقيام بمسؤولياتي . أية مسؤوليات ؟ لم تكن لدي فكرة عن ذلـــك ، بصراحة ، هل كانت هنالك اية قيمة لما كنت اقوم به تبرر الاستمرار فيه ؟ ولكن الامر لم يكن كذلـك تماماً . لقد لاحقني خوف مضحك . والحق ان المرء لا يستطيع ان يموت بدون ان يكون قد اعترف بكل اكاذيبه . ليس لله او لاحد من ممثليه . لقد كنت فوق ذلـــك ، كما يمكنك ان تتصور جيداً . كلا ، كان ذلـــك اعترافاً للبشر ، لصديق ، لامرأة احبها ، مثلاً . والا فاذا كانت هنالـك اكذوبة واحدة خفية في حياة الانسان فان الموت يدفنها . لن يعرف احد مرة اخرى حقيقة هذه المسألة ، ما دام الشخص الوحيد الذي يعرف ذلـك هو الميت الذي نام مع سره . وكان هذا القتـــل المطلق للحقيقة يصيبني بالغيبوبة . واليوم ، ودعني ابدي دهشتي من ذلك ، صار هذا يبهجني بهجة شديدة . هنالك مثلاً الفكرة التي تشير الى انني الوحيد الذي يعرف مـــا يبحث عنه الجميع وانني املـك شيئاً ظـل البوليس عبر ثلاثة قرون يبحث عنه ، وهذه الفكرة منحتني غبطة تامة . ولكن دعنا لا نستمر في بحث ذلك . فلم اكن قد وجدت الوصفة في ذلك الحين ، وكنت شديد القلق .

ولكنني جمعت اطراف شجاعتي بالطبع . فماذا كانت اكذوبة رجل واحد ستهم في تاريخ الاجيال ؟ واي ادعاء يكمن في الرغبة في اخراج اكذوبة لا قيمة لها ، مغمورة في بحر الدهور كذرة الرمل في المحيط ، الى نور الحقيقة ! قلت لنفسي ايضاً ان موت الجسد طبقاً لما رأيته في اولئك الذين ماتوا ، كان بحد ذاته عقاباً كافياً يمحو كل شيء . كما انه يتم كسب الخلاص (اي الحق في الاختفاء تماماً) في متعة عذاب الموت . وبرغم ذلك ازدادت تعاستي ، وكان الموت اميناً في الهيمنة على فراشي ، وكنت استيقظ معه كل صباح . واصبحت المدائح غير محتملة بالنسبة لي ، اكثر فاكثر . ولاح لي ان الزيف ازداد معها بحيث لم يعد في وسعي ان اقوّم نفسي ثانية .

وحل يوم لم اعد فيه احتمل ذلك . وكان رد فعلي الاول متطرفاً ، فما دمت كذاباً لا بد لي من ان اكشف عن ذلك واواجه بازدواجيتي كل اولئك المعتوهين حتى قبل ان يكتشفوا ذلك . وسأكشف عن حقيقتي ، متقبلاً التحدي . ولكي اقضي على الضحك ، كنت احلم بالقاء نفسي في الهزء العام . باختصار ، كانت المسألة ما تزال تتعلق بالتملص من الحكم . لقد اردت ان اضع اولئك الضاحكين الى جانبي . او ان اضع نفسي الى جانبهم على الاقل . وفكرت ، مثلا ، بمزاحمة العميان في الطريق ، ومن الغبطة الخفية اللامتوقعة التي كان هذا يمنحني اياها ، ادركت كم كان كبيراً ذلك الجانب من روحي الذي كان يحتقرهم . وصممت على ان اثقب اطارات سيارات العاجزين ، واصرخ « البروليتاريون القذرون » تحت الهياكل الخشبية التي يعمل عليها العمال ، واصفع الاطفال في النفق . وكنت احلم بكل ذلك ولكنني لم افعل شيئاً منه ،

او انني حتى اذا كنت قد فعلت شيئاً منه فقد نسيته . وعلى اي حال ، فان كلمة « العدالة » نفسها كانت تصيبني بنوبات غريبة من الغضب . ومضيت بالضرورة في استخدامها في خطبي القضائية ، ولكنني انتقمت بالنيل علناً من الروحية الانسانية واعلنت عن بيان يفضح الاضطهاد الذي يفرضه المضطهدون انفسهم على الناس المحترمين . وفي يوم من الايام ، بينا كنت اتناول طعاماً مؤلفاً من ابو جلمبو في مطعم جانبي على الطريق وكان هنالك شحاذ يضايقني ، طلبت من صاحب المطعم ان يطرده . واتفقت علناً مع عبارة ذلك القاضي : « انت تربك الناس . ضع نفسك فقط في مكان هؤلاء السادةوالسيدات ! » واخيراً ، كنت اعبر لكل من كان يصغي عن اسفي لانه لم يعد في الوسع التصرف كما فعل اقطاعي روسي كنت معجباً بشخصيته . فقد كان يأمر بضرب الفلاحين الذين ينحنون له والذين لا ينحنون له لكي يعاقب الجسارة التي كان يعتبرها جريمة في الحالتين .

ومهما يكن الامر ، فانني اتذكر تطرفاً اشد . لقد بدأت اكتب « اغنية الى البوليس » و « تأليه المقصلة » . وعلاوة على ذلك ، كنت اضطر نفسي الى زيارة المقاهي الخاصة بصورة مستمرة ، حيث يجتمع مفكرونا الاحرار الانسانيون الذين يتمهنون الانسانية . وكان سجلي الحافل الممتاز في الماضي يتيح لي الترحيب . وهنالك ، وبدون ان يلوح عليّ ذلك ، كنت اطلق تعبيراً ممنوعاً : « شكراً لله ... » او ببساطة أشد : « الهي .. » وانت تعرف اي اطفال خجولين صغار هم ملحدو مقاهينا . وكانت تتبع ذلك التعبير الجسور لحظة دهشة ، ثم ينفجر السخط . فيغادر البعض المقهى ، ويثرثر الاخرون باستياء دون ان

يصغوا لاي شيء . بينما يرتجف الجميع كالشياطين في الماء المقدس .

قد تعتبر ذلك طفولياً . الا انه قد يكون هنالك سبب جدي لتلك النكات الصغيرة . لقد اردت ان اقلب اللعبة رأساً على عقب ، وفوق ذلك اردت ان ادمر تلك الشهرة التي كانت تحيطني بالاعجاب والتي كان مجرد التفكير فيها يصيبني بأشد نوبات الغضب . وقد يقول الناس بعذوبة: « رجل مثلك ... » ويهرب الدم من وجهي . فلم اكن اريد احترامهم لانه لم يكن عاماً ، وكيف يكون عاماً اذا لم اكن انا لاقاسمهم اياه ؟ ولهذا فقد كان من الافضل ان اغطي على كل شيء ، الحكم والاحترام ، بغطاء من السخرية . كان علي ان احرر باي ثمن الشعور الذي كان يخنقني . ولكي اكشف لكل الاعين حقيقة الكيان الشمعي الجميل الذي كنت اعرضه في كل مكان ، كان علي ان احطمه واخرج ما بداخله . اذكر مثلاً محاضرة غير رسمية كان علي ان القيها على جماعة من المحامين الشبان الناشئين . وبعد ان ضايقني المديح الخيالي الذي احاطني به رئيس النقابة الذي قدمني ، لم استطع المقاومة طويلاً . وكنت قد بدأت بالحماسة والاندفاع المعهودين بي ، ولم يكن ذلك صعباً علي ، ولكنني رحت فجأة أشيد بالمشاركة كنظام للدفاع . وقلت ان ذلك لم يكن لان المشاركة التي اوصلها الى الكمال التحقيق الحديث الذي يحكم في وقت واحد على اللص والشريف ليسحق الثاني بجرائم الاول . بالعكس ، فقد كنت ادافع عن اللص بفضح جرائم الشريف ، اي المحامي في هذا المثال . وقد اوضحت الامر بعناية :

« لنفترض انني قبلت الدفاع عن مواطن يثير العطف ، قاتل بسبب الغيرة . كنت سأقول : أيها السادة المحلفون ، فكروا في الغضب الذي

لا غبار عليه حين يرى المرء طبيعته الخيرة موضع الاختبار أمـــام لؤم الجنس اللطيف . بالعكس ، أليس اخطر ان اكون بالصدفة في جانب النقابة ، على منصتي ، دون ان اكون طيباً في حياتي ، ودون ان اكون قد قـاسيت من الخداع ؟ انا حر ، في حمى من روادعكم ، ومع ذلك فمن انا ؟ لويس الرابـع عشر في الكبرياء ، وعـــنز في الشهوة ، وفرعون في الغضب ، وملـك في الكسل . لم اقتل احداً ؟ لم افعل ذلك بعد ، حقـاً ! ولكن ، ألم اجعل المخلوقات التي تستحق القتل تموت ؟ ربما . وربما اكون مستعداً لفعل ذلك ثانية . بينما ان هـــذا الرجل – انظروا اليه فقط – لن يفعل ذلك ثانية . انه مـــا يزال مندهشاً لانه فعل ما فعل . »

ولكن هذا الخطـــاب أقلق زملائي . وبعد لحظة قر رأيهم على السخرية منه . واصبحوا في أتم اليقين حين وصلت الى استنتاجـاتي ، التي تشبثت فيها بالفرد الانساني وحقوقه المفترضة ، وهكذا فـــازت العادة في ذلك اليوم .

وبتكرار هذه الامور اللطيفة الخارجة عن نطاق الحصافة ، نجحت فقط في بث القلق في الرأي نوعاً مـــا . ولكنني لم انجح في اضعاف نفسي . بيد ان الدهشة التي كنت اجابه بها بصورة عامة بين المستمعين ، وربكتهم الصامتة ، كهذه التي تلوح عليـــك – كلا ، لا تحتج – لم تقنعاني مطلقاً . انت ترى انه لا يكفي اتهامك لنفسك لتبرئة ضميرك ، والا فانني سأكون الآن في براءة الحمل . اذ يجب على المرء ان يتهم نفسه بطريقة معينة ، لم ابلغها الا بعد وقت طويل . ولم اكتشفها الا حين بلغت حالة من النبذ التام . وحتى ذلك الحين ، استمر الضحك في

طريقي ، دون ان تفلح جهودي العرضية في تجريده من ميزته الحنون الرقيقة التي كانت تؤلمني .

ولكن البحر هـائج كما يلوح لي . ولن يمر وقت طويل قبل ان يبحر قاربنا . والنهار موشك على الانتهاء . انظر . ان الحمـائم تتجمع هناك في الاعالي ، انهـــا تزاحم بعضها ، ولا تتحرك الا قليلاً . بينما يخفت النور . الا تعتقد اننـــا يجب ان نصمت لنستمتع بهذه اللحظة الآثمة نوعاً ما ؟ كلا ؟ انت مستمتع بحديثي ؟ انت جم الادب . ثم انني اجازف الآن بامتاعك حقاً . وقبل ان اوضح مـا اريد ايضاحه بشأن مسألة القضاة التائبين ، عليّ ان احدثك عن الفساد الخلقي ، والراحـة الصغيرة .

انت مخطىء ، يا عزيزي ، فان الزورق منطلق بكل سرعته . ولكن الزويدر زي هو بحر ميت ، او انـــه كذلك تقريبـــاً . فبسواحله المسطحة ، الغارقة في الضباب ، لا يمكن لاحد ان يقول اين هي بداياته او نهاياتـه . وهكذا فنحن مبحرون فيـه دون ان تكون هنالك ايـة علامات ، وبهذا ألا يمكننا قياس السرعة . نحن نتقدم ، دون ان يتغير شيء . انه ليس إبحاراً ، وانما هو حلم .

توفر لي شعور معاكس في ارخبيل اليونان ، فقد كانت تظهر دائمـاً جزر جديدة في الافق . وكانت نهاياتها الخالية من الاشجار تضع حدوداً للسماء ، بينما كانت سواحلهـــا الصخرية تتعارض بحدة مع البحر . ولم يكن النظر ليرتبك ، ففي ذلك النور الشامل كان كل شيء علامـــة مميزة . ومن جزيرة الى اخرى ، بلا انقطاع في قاربنـــا الصغير الذي كان مع ذلك يسير ببطء ، كنت اشعر وكأننا كنـا ننطلق كالريح ، ليلاً ونهاراً ، على عُرف الامواج القصيرة الباردة في سباق حافل بتألق قطرات الماء والضحك . ومنذ ذلك الحين كانت اليونان نفسهـا تنطلق على غير هدى في مكان ما من نفسي ، على حافة ذاكرتي ، دون كلل ... اوقفني ، فانا نفسي انطلق انطلاقاً سائباً الآن ، واصبح غنائياً ! اوقفني يا عزيزي ، أرجوك .

على فكرة ! أتعرف اليونان ؟ كلا ؟ هذا افضل . اسألك ، ماذا سنفعل هناك ؟ هناك يكون على المرء ان يُنقـّي قلبه . أتعرف ان الاصدقاء

الذكور في اليونان يسيرون في الشوارع ازواجاً متشابكي الايدي ؟ أجل ، ان النساء يبقين في البيوت ، وغالباً ما ترى رجلاً كهلاً محترماً ذا شاربين رياضيين وهو يسير بوقار على الرصيف عاقداً اصابعه باصابع صديقه . في الشرق ايضاً في بعض الاحيان ؟ حسناً . ولكن اخبرني ، هل ستأخذ يدي في شوارع باريس ؟ آه ، انني امزح . نحن نمتاز بشيء من المجاملة الاجتماعية ، وتجعلنا النفايات نلوح مزوقين . وقبل ان نظهر في الجزر اليونانية ، علينا ان نغتسل . فهنالك يصفو الهواء ويكون طاهراً ، والمتعة الحسية شفافة كالبحر ، ونحن ...

دعنا نجلس على مقاعد القارب . اي ضباب ! اظن انني قاطعت نفسي في طريقي الى الراحة الصغيرة . اجل سأخبرك بما اعني . فبعد ان كافحت ، وبعد ان استنفدت كل فخفختي الوقحة ، ويئست من لا جدوى جهودي ، قر رأيي على ترك مجتمع الرجال . كلا ، كلا ، لم أبحث عن جزيرة نائية مجهولة ، فليس هنالك الآن مثل هذه الجزر . لقد التجأت الى مجتمع النساء فقط . وكما تعرف ، فانهن لا يتحدثن بالسوء ضد اي ضعف ، وانما هن بالعكس يملن الى اخضاعنا او تجريدنا من القوة . ولهذا فان المرأة ليست جائزة المحارب وانما هي جائزة المجرم . انها ميناؤه ، وملجؤه ، وغالباً ما يتم القبض عليه في فراش امرأة . أليست هي كل ما يتبقى لنا من الفردوس الدنيوي ؟ وقد هرعت الى ملجئي الطبيعي في ظروف بؤسي . ولكنني لم استمر في القاء خطبي الجميلة . كنت ما ازال اقامر قليلاً ، بسبب العادة ، ولكن ذلك لم يكن ليحتوي على اي جديد كما كان من قبل . وانا اتردد في الاقرار بذلك لئلا استخدم بضع كلمات شريرة : فقد لاح لي انني كنت

في ذلك الحين في حاجة الى الحب . فـاضح ، اليس كذلك ? على اي حال ، لقد جربت عذاباً خفياً ، نوعاً من الحرمـان جعلني اشد خواء وسمح لي ، اولاً بالضرورة ، وثانيـاً بسبب الفضول ، بان اقوم ببعض الالتزامات . فبقدر حاجتي الى ان احب واكون محبوباً ، كنت اعتقد انني كنت مغرماً . بعبارة اخرى ، كنت العب دور الاحمق .

كنت اكتشف نفسي في اغلب الاحيان وانا اسأل سؤالاً كنت اتجنبه في المـاضي باعتباري رجلاً مجربـاً . كنت اسمع نفسي متسائلاً : « أتحبينني ? » وانت تعرف ان العادة قد جرت في مثل هذه الاحوال على ان تجيب قائلة : « وأنت ? » فاذا قلت : « اجـل ، » فانني سألزم نفسي بمـا هو اكثر من مشاعري الحقيقية . واذا جرؤت على قول : « لا » ، فانني كنت سأجازف بحرماني من ان اكون محبوباً ، وكنت لذلك سأتعذب . فكلما ازداد التهديد الذي كان يحيط بالشعور الذي كنت آمل ان اجد فيه الراحة ، زاد طلبي لذلك الشعور من شريكتي . وهكذا قادني ذلك الى وعود أشد وضوحاً ، وصرت اتوقع من قلبي شعوراً اشد اجتياحاً . وادى بي هـذا الى نوع من العـاطفة الكاذبة لامرأة فاتنة حمقـاء كانت قد قرأت الكثير جـداً من قصص « الحب الحقيقي » بحيث انها كانت تتحدث عن الحب باليقين والاعتقاد اللذين يعلن بهما المثقف عن المجتمع الذي يخلو من الطبقات . ومثل هذا الاعتقاد ، كما لا بد انك تعرف يصيب الآخرين بالعدوى . لقد جربت ان اتحدث كذلك عن الحب ، وبذلك اقنعت نفسي . على الاقل حتى اصبحت الفتـاة عشيقتي وادركت ان قصص « الحب الحقيقي » رغم كونها تعلم الناس كيف يتحدثون عن الحب ، لم تعلمهم كيف يحبون

بعضهم بعضاً . فبعد ان كنت قد احببت ببغـاء ، كان علي ان اذهب الى الفراش مع أفعى . وهكذا فتشت في مـكان آخر عن الحب الذي تَعِدُ به الكتب ، والذي لم اجده في حياتي مطلقاً .

ولكن كانت تنقصني الممارسة . لقد كنت خلال اكثر من ثلاثين سنة احب نفسي . فأي امل كان لي في ترك تلك العادة ؟ ولم افقدها ، وانما بقيت ذلك العابث في العاطفة . وضاعفت الوعود ، وتعـاقدت على علاقـات غرامية متعددة في آن واحد ، كما كانت لدي في فترة سابقة عدة علاقات جنسية في وقت واحد . وبهذه الطريقة كنت اسبب مصائر مؤلمة للاخرين اكثر مما كنت افعل في فترة لا اكتراثي البديع . هـل اخبرك بان ببغائي اصابها اليأس وارادت ان تموت جوعـاً ؟ ولكنني لحسن الحظ وصلت في الوقت المناسب ووافقت على الامساك بيدها حتى قابلت المهندس ذا الفودين الاشيبين حين عـاد من رحلته الى بالي ، بعد ان كانت قد وصفته لها صحيفتها الاسبوعية المفضـلة . وعلى اي حال ، وبدلاً من ان اجد نفسي متحولاً ، مبرءا في دوامة عواصف العاطفة – كما يقول المثل – كنت اضيف المزيد الى عبء جرائمي وانحرافي عـن الفضيلة . وبالنتيجة ، صرت اشمئز من الحب الى درجة انه لم يكن في وسعي لسنوات ان اسمع « الحياة الوردية » او « اغنية الحب » دون ان اصر على اسناني . وحاولت بعد ذلك ان اتخلى عن النساء ، بطريقة ما ، واعيش في حالة من الطهر . وقلت لنفسي ان صداقتهن تكفيني . ولكن هذا كان يشبه التخلي عن المقامرة . فبدون الاشتهاء كانت النساء يضجرنني الى حد لم اكن اتوقعه ، وكنت انا ايضاً اضجرهن . لا مزيد من المقامرة او الذهاب الى المسرح – لا بد انني كنت في دنيا الحقيقة .

ولكن الحقيقة ، يا صديقي العزيز ، هي سأم منقطع النظير .

وحين يئست من الحب والطهر ، فكرت اخيراً في الفسق ، كبديل عن الحب . فهو يكبت الضحك ويعيد الصمت ويسبغ الخلود بعد كل هذا . ففي درجة معينة من السكر اللطيف ، حين اكون مضطجعاً في وقت متأخر من الليل بين بغيين ، مستنفد الشهوة ، لا يكون الامل عذاباً ، كما ترى ، وانما يتحكم الذهن في الماضي كله ، وينتهي عذاب العيش . بل انني عشت في الفسق دائماً ، دون ان اكف عن الرغبة في ان اكون خالداً . الم يكن هذا مفتاح طبيعتي وكذلك نتيجة حبي العظيم لنفسي الذي اخبرتك عنه ؟ اجل ، لقد كنت اتفجر بالحنين الى ان اكون خالداً . لقد كنت احب نفسي بحيث انه لم يكن في وسعي ان اتخلى عن الرغبة في ألا يختفي هذا الشيء الذي كنت احبه ابدا .

والمرء حين يكون صاحياً مزوداً بالقليل من المعرفة الذاتية غير قادر على العثور على سبب واحد لاسباغ الخلود على هذا القرد الشهواني ، عليه ان يبحث عن بديل لذلك الخلود . ولانني كنت احن الى الحياة الابدية ، كنت اذهب الى الفراش مع البغايا واشرب الخمر ليالي بكاملها . وفي الصباح ، كان فمي يمتلىء حقاً بالمذاق المر الذي تتصف به حالة الفناء . ولكنني كنت قد حلقت ساعات طويلة في دنيا السعادة . هل اجرؤ على الاقرار لك بذلك ؟ ما أزال اذكر بتلهف ليالي معينة كنت اذهب فيها الى ناد ليلي عادي لأقابل امرأة تمتهن مراقصة الاخرين ، كانت تسبغ علي نعمها ، وكنت قد دافعت عن سمعتها في صراع مع رجل ملتح متعنت . وكنت اتعلق بالبار في كل ليلة ، في النور الاحمر والغبار اللذين يتصف بهما ذلك الفردوس الارضي ، واكذب بصورة مغرقة في

الخيـــال واشرب واشرب . وكنت انتظر الفجر وينتهي بي الامر في فراش اميرتي غير المرتب دائماً ، وكانت تغرق في الجنس بصورة ميكانيكية ، ثم تنام مبــاشرة . ويأتي النهار بنعومة ليغدق النور على هذه الكارثة فانهض واقف بلا حراك في فجر من المجد . أقر بان الخمر والنساء اتاحا لي التعزية الوحيدة التي كنت استحقها . ساطلعـــك على هذا السر يا صديقي العزيز ، ولا تخش ان تستفيد منه . وسترى ان الفسق الحقيقي هو تحرير لانه لا يأتي بأية التزامات . فانت تمتلك نفسك فقط ، وهكذا فانه تظل المتعة المفضلة عند اولئك الذين يحبون انفسهم اشد الحب . انه غابة لا ماضي فيها ولا حاضر ، ولا وعود ابداً ، ولا عقوبة مباشرة على الاطلاق . والاماكن التي يمارس فيها الفسق معزولة عن العالم . وحين يدخلها المرء يترك خلفه الخوف والامل . وليس الحديث ضرورياً فيها ، اذ يستطيع المرء ان يحصل على ما يريده هنالـك بدون اي حديث ، وغالباً ما يكون ذلـك بدون نقود ايضاً . آه ، ارجوك ، لا بد ان أشيد بالنساء المجهولات المنسيات اللواتي ساعدنني في ذلك الحين ! وحتى اليوم ، فان ذكراي لهن تستمر فيما يشبه الاحترام .

على اي حال ، كنت قد استفدت فائدة تامة من ذلـك التحرير . بل لقد شوهدت في فندق مكرس لمـا يسمونه الخطيئة ، حيث عشت مع بغي ناضجة وفتاة غير متزوجة من افضل الطبقات . وكنت العب دور الفــارس مع الاولى ، بينما كنت اعطي الثانية فرصة لتتعلم حقائق الواقع . ولسوء الحظ ، كانت البغي تتميز بطبائع الطبقة المتوسطة ، ووافقت على كتابة مذكراتها لمجلة تنشر الاعترافات وتفتح صدرها للاراء الحديثة ، وتزوجت الفتاة لتشبع غرائزها الجـامحة وتستفيد من مزاياها

الرائعة . ولست افخر ايضاً بكوني قد قبلت في ذلك الحين في جماعة من الذكور كانت دائماً موضع التسميات السيئة . ولكنني لن أصر على ذلك : انت تعرف ان الاذكياء انفسهم يفخرون باستطاعتهم شرب قنينة كاملة اكثر من الجالس الى جانبهم . وكنت ساجد الراحة والانطلاق في ذلك الانحلال الخلقي ، الا انني جابهت هنالك ايضاً عقبة في نفسي . كبدي ، هذه المرة ، وتعب هائـــل لم يغادرني حتى الان . ان المرء ليلعب دور الخالد ، وبعد بضعة اسابيع تجده لا يعرف حتى ولا كونه سيبقى حياً حتى اليوم التالي ام لا .

كانت الفائدة الوحيدة في تلـــك التجربة ، حين تخليت عن متعي الليلية ، هي ان الحياة صارت اقل ألماً بالنسبة لي . وكان التعب الذي كان ينخر في جسمي قد ترك علاماته فيه ، فكل افراط يقلـــل من الحيوية وهكذا ينجم من ذلك العذاب . وليس هنالـــك اي انفعال محمول في الفسق ، بعكس مـــا يتصوره الاخرون . فهو ليس غير نوم طويل . ولا بد انك لاحظت ان إولئك الذين يقاسون من الغيرة حقاً لا يملكون رغبة ملحة اشد من رغبتهم في النوم مع المرأة التي يعتقدون انها قد خانتهم . انهم يريدون بالطبع ان يؤكدوا لانفسهم مرة اخرى ان كنزهم الغالي ما يزال يخصهم . انهم يريدون ان يمتلكوه ، كما يقول المثل . ولكنهم يصبحون اقـــل غيرة بعد ذلك ، والغيرة الجسدية هي نتيجة تصور المرء في الوقت نفسه انها حكم ذاتي ، فيسبغ على المنافس الافكار القذرة التي تكون له هـــو نفسه في الظروف المشابهة . ولحسن الحظ ، فان الافراط في الاشباع الحسي يضعف الخيـــال والحكم معاً . ويغفو العذاب بعد ذلـــك طيلة غفوة الحيوية . ولهذا السبب يفقـــد

المراهقون قلقهم الميتافيزيكي مع العشيقة الاولى . وقد صارت بعض الزيجات ، التي هي فسق رسمي وخسب ، الاكفان الرتيبة للجرأة والتجديد . اجل ، صديقي العزيز ، لقد وضع البورجوازي بلادنا في نعلين وسيقودها سريعاً نحو بوابات الموت .

انا أبالغ ؟ كلا ، ولكنني أشذ عن الموضوع . كنت اريد فقط ان اخبرك بالفائدة التي حصلت عليها من أشهر التحلل الخلقي . لقد عشت فيها فيما يشبه الضباب الذي صار فيه الضحك خافتاً بحيث لم اعد الاحظه . ولم يعد اللااكتراث الذي كان يسيطر علي يواجه اي مقاومة ، فوسَّع حدقته . لا مزيد من العاطفة ! مزاج معتدل ، او لا مزاج على الاطلاق . ان الرئات المسلولة تشفى بالجفاف وتخنق صاحبها السعيد تدريجياً . وكذلك كان الامر معي حين مت بسلام بسبب علاجي . وكنت ما ازال اعيش من عملي ، رغم ان سمعتي كانت قد تضررت الى حد بعيد بسبب شطحات لغتي وممارستي المنتظمة لمهنتي التي نالت منها فوضى حياتي . ومن الجدير بالملاحظة ، على كل حال ، انني كنت أثير بافراطي الليلي استياء اقل من ذلك الذي كانت تثيره استفزازاتي الكلامية . وكانت الاشارة التي كنت غالباً ما اوجهها لغوياً فقط الى الله أمام المحكمة قد ايقظت شكوك زبائني ، وربما كانوا يخشون أن السماء لا تستطيع ان تمثل مصالحهم كما يفعل المحامي البارع الذي لا يقهر بقدر ما يخص الامر شرائع القانون . وهكذا فلم يكن الامر يتطلب الا خطوة واحدة للانتهاء الى انني كنت الجأ الى الله بنسبة جهلي . واتخذ زبائني تلك الخطوة فقل عددهم . وكنت ما ازال بين حين وآخر اناقش قضية ما ، وكنت في بعض الاحيان محامياً ممتازاً ، حين كنت انسى

انني لم اعد اؤمن بما كنت اقول . وكان صوتي يقودني فاتبعه ، وبدون ان احلق حقاً ، كما كنت افعل في الماضي ، كنت ارتفع عن الارض على الاقل واقفز بعض القفزات . اما خـــارج مهنتي ، فلم اكن لارى غير القلائل ، ولم أبقِ الا على علاقـة او علاقتين مع نساء ضجرات ، وكان الاحتفاظ بهن يسبب لي ألمـاً شديداً . بل لقد كان يحدث ان انفق امسيات ودية نقية ، خالية من عنصر الشهوة ، ومـع ذلك فقد كان هناك اختلاف هو انني لشدة سأمي ، لم اكن اصغي الا قليلاً لمـا كان يقال . وصرت اشد بدانة قليلاً ، وصار في وسعي ان اعتقد في النهاية ان الازمة قد انتهت ، ولم يبق علي الا ان اتقدم في العمر .

وفي احد الايام ، على اي حال ، أثناء سفرة كنت اقوم بهـــا مع صديقة رغم انني لم اخبرها بانني كنت احتفل بشفائي ، كنت على ظهر باخرة من بواخر المحيط – على السطح الاعلى بالطبع ، وفجأة ، وبعيداً في عرض البحر ، لمحت بقعة سوداء على المحيط الرمادي الملفع بلون الفولاذ ، واستدرت في الحـــال ، وبدأ قلبي يخفق بعنف . وحـــين اضطررت نفسي الى النظر ثانية ، كانت البقعة السوداء قـد اختفت . وكنت على وشك ان اصيح ، واطلب النجدة بكل حماقة ، حين رأيتها ثانية ، وكانت قطعة من النفايات التي تخلفهـــا السفن وراءهـــا . ومع ذلك ، فلم يكن في وسعي ان احتمل النظر اليهـــا ، لانني فكرت في الحـــال في شخص يغرق ، ثم ادركت ، بهدوء كما يحدث حين تستسلم لفكرة كنت تعرف حقيقتها منذ زمن طويل ، ان الصراخ الذي تعالى على السين خلفي منذ سنوات لم ينقطع مطلقاً ، وانما مـــا يزال يحمله النهر بعيداً الى ميـــاه القنال ، ليسافر في العالم ، عبر امتداد المحيط

الشاسع ، وادركت ايضاً انه قد انتظرني هنالك حتى اليوم الذي واجهته فيه . وعرفت كذلك انه سيستمر في انتظاري في البحار والانهار . باختصار ، في كل مكان ، حيث يكمن ماء تعميدي المر . هنا ايضاً ، على فكرة ، ألسنا ما نزال على الماء ؟ على هذا الماء المسطح الرتيب الذي لا ينتهي والذي لا تتضح حدوده من حدود الارض ؟ وهل تصدق اننا سنصل امستردام حقاً ؟ لن نخرج من هذه الجبهة المائية المقدسة ابداً . أصغ ، ألا تسمع صراخ الطيور المائية اللامرئية ؟ اذا كانت تصرخ في اتجاهنا ، فالى اي اتجاه تدعونا ؟ ولكنها الطيور المائية نفسها التي كانت تصرخ ، والتي كانت تنادي على الاطلسي في اليوم الذي ادركت فيه بوضوح انني لم اشف ، وانني ما ازال محاصراً ، وانني يجب ان احاول . انتهت الحياة الساطعة ، ولكن انتهت ايضاً حمى الاندفاع وتقلصات الالم . كان علي ان استسلم واقر بجرمي . وكان علي ان اعيش في الراحة الصغيرة . انت لا تعرف ما هي تلك الزنزانة التي كانوا يسمونها في القرون الوسطى « الراحة الصغيرة . » كان المرء يعيش منسياً في تلك الزنزانة طيلة حياته . وكانت تتميز عن غيرها من الزنزانات بابعادها البارعة . فلم تكن عالية بما يكفي للوقوف فيها ، ولا تتسع للاضطجاع . وكان على المرء ان يتخذ وضعية شاذة ليعيش بين الزاويتين الرأسيتين ، وكان نومه تكوماً ، ويقظته تربعاً . كانت هنالك براعة يا عزيزي – وانا ازن كلماتي – في ذلك الاقتراح البسيط . وفي كل يوم اثناء ذلك التقييد اللامتغير الذي يُصَلّب جسد المحكوم ، كان يعرف انه مذنب ، وان البراءة تتألف من مد الجسم بغبطة . استطيع ان تتصور في تلك الزنزانة رجلاً اعتاد على القمم والسطوح العالية ؟ ماذا ؟ يمكن ان يعيش المرء في تلك الزنزانات وهو ما يزال

بريئاً ؟ غير محتمل ! غير محتمل ابداً ! والا فان استنتاجاتي ستنهار . انني ارفض ان اقر بمثل هذه الفرضية لحظة واحدة — ان البراءة يمكن ان تقلّص الى حد العيش كالاحدب . واكثر من ذلك فاننا لا نستطيع ان نعلن براءة احـــد على الاطلاق ، في حين اننا نستطيع ان نبين بالتأكيد ان الجميع مذنبون . ان كل شخص يشهد على جرائم الآخرين جميعهم — هذا هو ايماني وأملي .

صدقني ان الاديان هي على خطأ في اللحظة التي تبشر فيها بالاخلاق وتأمر فيها بالوصايا . وليست هنالك حـاجة الى الله لايجاد الذنوب او للعقاب ، ويكفي زملاؤنا البشر ، نساعدهم نحن في ذلك . لقد كنت تتحدث عن يوم الحساب الاخـــير . اسمح لي بأن اضحك باحترام ، وسأنتظر ذلك بعزم ، لانني عرفت ما هو أسوأ منه ، حساب البشر . فهم لا يعترفون بظروف مخففة ، بل ان النية الحسنة نفسها تُعزى الى الجريمة هل سمعت على الاقل بزنزانة البصاق التي فكر بهـــا شعب من الشعوب مؤخراً ليثبت انه اعظم الشعوب ؟ صندوق محاط بالجدران يستطيع المرء ان يقف فيه فقط دون ان يتحرك ، والبـاب الصامد الذي يسجنه في صدفتـه الاسمنتية يقف عند مستوى ذقنه ، فلا يمكن ان يرى احد غير وجهه وكل سجان يمر بقربه يبصق فيه بكل قوته . والسجين المحصور في زنزانته لا يستطيـع ان يمسح البصاق عن وجهه ، رغم انهم يسمحون له ، حقاً ، بـأن يغمض عينيه . حسناً ، هذا هو يا عزيزي اختراع انساني . ولم يشعروا بالحاجة الى الله ليصلوا الى ذلك العمل الرائع الصغير .

مـاذا في ذلـــك ؟ حسناً ، ان جدوى الله الوحيدة هي ان يمنح

البراءة ، وانا اميل الى ان اري الدى مغامرة تنظيفية هائلة – كما كان مرة ، ولكن لفترة قصيرة جداً ، أمدهـــا ثلاث سنوات ، ولم يكن يسمى ديناً آنذاك . ومنذ ذلك الحين ، لم يعد هنالك صابون ، وصارت وجوهنا قذرة ، ونحن نمسح انوف بعضنـــا البعض . ولما كان الكل اغبياء ، والكل معاقبين ، دعنا نبصق في وجوه بعضنـــا البعض و – هيا ! الى الراحة الصغيرة ، وكل واحد يحاول ان يبصق اولاً ، وهذا هو كل ما في الامر . ساخبرك بسر كبير ، صديقي العزيز ، لا تنتظر يوم الحساب الاخير ، انه يحدث في كل يوم .

كلا ، لا شيء . انني ارتجف قليلاً فقط في هذه الرطوبـة اللعينة . ونحن نهبط الى اليابسة على اي حال . هـا نحن بعدك . ولكن ابق قليلاً ، ارجوك ، وسر معي الى البيت . لم انتـه بعد ، ويجب ان استمر . الاستمرار هو الامر الصعب . اخبرني ، اتعرف لمـاذا صلبوه – ذلك الذي قـد تفكر فيه الآن ؟ حسناً ، كانت هنـــالك اسباب كثيرة في ذلك الحين . هنالك دائمـــاً اسباب لقتل انسان ، وبعكس ذلك ، فمن المستحيل تبرير استمراره في الحياة . ولهذا السبب فـــان الجريمة تجد المحامين دائماً بينما لا تجدهم البراءة الا نادراً . ولكن ، الى جانب الاسباب التي تم شرحها لنا جيداً خلال الالفي سنة المـاضية ، كان هنالك سبب رئيسي لذلك العذاب الهائل ، ولست اعرف لماذا تم اخفاؤه بمثل هذه العنايـة . السبب الحقيقي هو انه عرف انه لم يكن بريئاً تماماً . فاذا لم يحتمل عبء الجريمة التي كان متهماً بها ، فانه كان سيتهم آخرين – رغم انه لم يكن يعرف من سيتهم ، ألم يعرفهم حقاً ؟ لقد كان في المصدر ، بعد كل ذلك ، فلا بد انه كان قد سمع بـذبحة

معينة للابرياء . أطفال ذبحوا بينما كان اقرباؤه يـأخذونه الى مكان آمن – لماذا ماتوا اذا لم يكن ذلك بسببه ؟ هؤلاء الجنود الملطخون بالدماء ، والاطفال المشطورون الى نصفين ، ملأوه بالرعب . ولكن رجلاً مثله لم يكن لينسام ، اما بالنسبة لذلك الامر الذي يمكننا ان نحس في كل افعاله ، ألم يكن حنيناً لا علاج له في نفس رجـل كان يسمع ليلة بعد ليلة صوت المرأة وهي تبكي اطفالهـــا وترفض كل تعزية ؟ كان العويل سيشق قلب الليل ، والمرأة تدعو اطفالها الذين قتلوا لاجـله ، بينما هو ما يزال حياً ! فحين يعرف المرء ما عرفه هو ، ويكون مطلعاً على كل شيء عن الانسان ، آه ، من كان سيصدق ان الجريمة تتألف من جعل الآخرين يموتون اقل من كونها تتـألف من ألا يموت الانسان نفسه ! – وبمواجهته لجريمته البريئة ليل نهـار ، صعب عليها البقاء والاستمرار . كان افضل له ان ينتهي من الامر والا يدافع عن نفسه ، وان يموت ، لكي لا يكون الوحيد الذي يعيش ، وليذهب الى مكان آخر يتمسكون فيه به . ولكنه تذمر من عدم تمسكهم به ، وكان ذلك آخر ما يمكن ان يحتمل منه ، فحذف تذمره ولم يذكره احـــد . اجل انه التلميذ الثـــالث من تلاميذه الذي كتم شكواه اولاً ، وكانت تلك صرخـة عصيان ، اليست كذلك ؟ حسناً ، تحذف اذن . لاحظ ايضاً انه اذا لم يكتم لوقا شيئاً ، ما كان احد ليلاحظ ذلك . وعلى اي حال ، فما كانت ستصبح للامر كل تلك الاهمية ، وهكذا فان الرقيب ينـــادي علناً بما يمنعه هو نفسه . ونظام العالم هو في غموض ذلك .

ومع ذلك ، فان الذي خضع لحذف الرقابة لم يستطع الاستمرار ، وانا اتحدث الآن عن هذا يا عزيزي . لقد كان هنـــالك زمن لم تكن

لدي فيه أية فكرة في أية لحظة عن كيفية بلوغي اللحظة التـــالية .
اجل ، يستطيع المرء ان يشن الحرب في هـذا العـــالم ، ويحب حب القرد ، ويعذب زميله الانسان ، او يتحدث بالسوء فقط عن جـاره ، بينما هو يُشغل يديه بالحياكة . ولكن ، في حالات معينة ، يكون الاستمرار ، الاستمرار فقط ، فوق طـاقة البشر . ولم يكن هو فوق طـاقة البشر . يمكنك ان تثق بكلمتي . لقد صرخ عاليـــاً في عذابه ولهذا فانا احبه . صديقي الذي مات دون ان يعرف .

ويكمن سوء الحظ في انه تركنا وحيدين ، لنستمر ، مهما حدث ، حتى حيث نكون حبيسي الراحة الصغيرة ، ونحن نعرف بدورنا مـــا كان يعرفه ، ولكننا غير قادرين على فعل ما فعله ، ولا على الموت مثله . وقــد حـــاول البشر بطبيعتهم ان يحصلوا على بعض العون من موته . انه لنبوغ ان تقال لنا : « ليس منظركم جميلاً ، هذا مؤكد ! حسناً ، لن نمضي في التفاصيل ! سننهي ذلك في الحال على الصليب . » ولكن الكثيرين يصعـــدون الى الصليب الآن فقط ليكونوا مرئيين على مبعدة ، وحتى اذا كان عليهم ان يدوسوا باقدامهم على ذلك الذي كان هنالك طيلة هذا الزمن . وقد قر رأي الكثيرين على الاستغنـــاء عن الكرم لكي يمارسوا الاحسان . آه ، الظلم ، الظلم الشرير الذي وقـع عليه ! انه يعتصر قلبي .

يا للسموات ، لقد سيطرت علي العادة مرة اخرى ، وانا اكاد القي خطاباً في الحكمة . سامحني ، وارجوك ان تدرك ان لي اسبابي . لماذا ؟ هنالك متحف على مبعدة بضعة شوارع اسمه « ربنا في الغرفة العليا . » وكانوا في ذلك الحين يخصصون الغرفة العليا لمدافنهم . ثم ان السراديب

تفيض بالماء هنا . واليوم — ارح ذهنك - فان ربهم ليس في الغرفة العليا ولا في السرداب لقد رفعوه الى منصة القاضي ، في صميم قلوبهم . وهم يضربون ويحكمون باسمه . لقد تحدث بلطف الى الفاسقة : « ولست لاتهمك ! » ولكن هذا لا يهم ، لانهم يتهمون بدون ان يبرئوا احداً . باسم الرب ، ها هو ما تستحقه . الرب ؟ انه ، صديقي ، لم يتوقع هذا القدر . كل ما كان يريده هو ان يكون محبوباً ، ليس اكثر . هنالك بالطبع اولئك الذين يحبونه ، حتى بين المسيحيين . ولكنهم ليسوا بالكثيرين . وكان قد تنبأ بذلك ايضاً . وكانت عنده روح فكهة ، وقد انكره بطرس ، بطرس الجبان كما تعرف : « لست اعرف الرجل ، لست اعرف ما تقول .. الخ » حقاً ، لقد ذهب بعيداً ! وصديقي يلعب بالكلمات : انت بطرس ، وعلى هذه الصخرة سأشيد كنيستي . » ولا يمكن للسخرية ان تذهب الى ابعد من هذا . الا تعتقد ذلك ؟ ولكن لا ، انهم ما يزالون ينتصرون ! « انت ترى انه قد قال ذلك . » لقد قال ذلك حقاً ، وكان يعرف المسألة تماماً . وبعد ذلك ذهب الى الابد ، تاركاً اياهم ليحكموا ويتهموا ، العفو على شفاههم والحكم في قلوبهم .

لانه لا يمكن القول بأنه ليس هنالك اشفاق . كلا ، يا الهي ، بل اننا لا نكف عن الحديث عن ذلك ، وانما لم يعد احد يحظى بالتبرئة . وحول البراءة الميتة يزدحم القضاة ، القضاة من كل الاجناس ، قضاة المسيح وقضاة اعداء المسيح الذين هم مثلهم على كل حال ، تجمعهم الراحة الصغيرة ، لان المرء يجب الا يلقي باللوم كله على عاتق المسيحيين وحدهم ، لان الآخرين مشتركون ايضاً . اتعرف ما حل بأحد البيوت

في هذه المدينـة التي منحت ديكارت الحمـاية ؟ مصحة عقلية . اجل ، الهذيان العام ، والاضطهاد . ونحن ايضاً مضطرون الى ذلك بطبعنـا . لقد توفرت لك الفرصة لتلاحظ انني لم أُخْفِ شيئاً ، وامـا بالنسبة لك ، فانني اعرف انك توافقني في تفكيرك . ولهذا ، وما دمنا جميعاً من الحكام ، فاننا جميعاً مذنبون امام بعضنا البعض ، وكلنـا مسيح بطريقتنا الحقيرة ، نعاني من الصلب واحداً بعد الآخر ، ويحدث ذلك دائماً بدون علمنا . كنا سنصبح كذلك على الاقـل اذا لم اكن انا ، كلامانس ، قد وجدت طريقـة للخروج ، الحل الوحيـد ، الحقيقة الاخيرة ..

كلا ، انني اتوقف يا صديقي العزيز ، فـلا تخش شيئـاً ! ثم انني ساغادرك ، لاننـا نقف على عتبة داري ، وحين يكون المرء وحيداً ومتعباً ، فانه يميل الى اعتبار نفسه نبيـاً . وحين يتم قول وفعل كل شيء ، وهذا هو مـا انا عليه حقاً ، وألجـأ الى صحراء في الصخور والضباب والمياه الآسنة – نبياً فارغاً لازمان رثـة ، ايليا بدون مسيح ، تخنقني الحمى والخمر ، مستنداً بظهري الى هذا الباب الصفيق ، رافعـاً اصبعي نحو سماء تحفل بالتهديد ، انثر اللعنات على بشر لا قـانون لهم ولا يستطيعون احتمال اي حكم . لانهم لا يستطيعون ان يحتملوا ، ايها العزيز جداً ، وهذه هي المسألة كلها ان من يتمسك بقانون لا يخشى الحكم الذي يعوضه وفق نظام يؤمن به ، ولكن اشد العذابات الانسانية هو ان يكون المرء محكوماً بدون قانون . ومع ذلك فنحن نقاسي من من هـذا العذاب والقضاة المجردون من روادعهم الطبيعية والمتسيبون ، يتسابقون بواسطة مهنتهم . ولهذا فعلينا ان نحاول الذهاب باسرع ممـا

يفعلون ، اليس كذلك ؟ وهو مستشفى مجانين حقيقي . وهكذا يزيد عدد الانبياء والمشعوذين ، وهم يهرعون للوصول الى هناك بقانون جيد ، او بمنظمة لا قانون لها ، قبل ان يتم هجر العالم . ولحسن الحظ ، فقد وصلت ! وانا نهاية البداية . وانني اعلن القانون . وباختصار ، فـانا قاض تائب .

اجل ، اجل ، سأخبرك غداً مما تتألف هذه المهنة النبيلة . ستغادر بعد غد ، ولهذا فنحن على عجل من امرنا ، تعـال الى بيتي ، هل ستفعل ؟ اقرع الجرس ثلاث مرات فقط . ستعود الى باريس ؟ باريس بعيدة ، باريس جميلة ، ولم انسها . انني اتذكر غسقهـا في مثل هـذا الفصل بالذات . يهبط المساء جافاً مخشخشاً فوق السطوح التي يلفعهـا الدخان باللون الازرق ، وتدمدم المدينة ، ويلوح النهر وكأنه يجري الى الخلف . وعند ذلك كنت اتمشى في الشوارع ، كما يتمشون الآن ايضاً ، كما اعرف ! انهم يتجولون على غير هَدْيٍ ، متظـاهرين بالاسراع نحو زوجة متعبة ، نحو البيت العتيد ... آه يا صديقي ، اتعرف مـا هو المخلوق المتوحد حين يتجول في المدن الكبيرة ؟...

يضايقني ان اكون في الفراش حين تصل . لا شيء ، حمى خفيفة فقط اعالجها بشراب الجن . انني معتاد على هذه النوبات . اعتقد انني اصبت بالملاريا حين كنت البابا . كلا ، انني امزح نصف مزاح فقط . اعرف بماذا تفكر : انه لمن الصعب التفريق بين الصحيح والكاذب فيما اقوله لك الآن . أقرُّ بأنك على حق . انا نفسي .. كما ترى ، كنت اعرف شخصاً كان يصنف البشر الى ثلاثة اصناف : اولئك الذين يفضلون ان يكون لديهم ما يخفونه اكثر من ان يكونوا مضطرين الى الكذب ، واولئك الذين يفضلون ان يكذبوا اكثر من ألا يكون لديهم ما يخفونه ، واخيراً اولئك الذين يحبون الكذب والاخفاء معاً . سادعك تختار وكر الحمامة الذي يناسبني .

ولكن ماذا يهمني في ذلك ، الا تؤدي الاكاذيب بالنتيجة الى الحقائق ؟ وأليست كل قصصي الصحيحة والكاذبة تميل نحو الاستنتاجات ذاتها ؟ اليست كلها تعني الشيء نفسه ؟ وهكذا فماذا يهم اذا كانت صحيحة او كاذبة اذا كانت تعني في الحالتين ما كنته وما انا عليه الآن ؟ من السهل في بعض الاحيان ان نرى اعماق الكذاب باوضح مما نرى في اعماق الرجل الذي يقول لنا الحقيقة . الحقيقة هي كالضوء ، تعمي العين . والكذب ، من الناحية الاخرى ، هو غسق جميل يرفع من قيم الاشياء كلها . حسناً ، اخرج من الامر بما تشاء ، ولكنني سميت البابا

في معسكر للاسرى . اجلس ، رجـاء . انك تتفحص هذه الغرفة ، عارية ، حقاً ، ولكنهـا نظيفة . اغطية للجدران ، بدون اثاث او اواني نحاسية .. ولا كتب ايضاً ، لانني تخليت عن القراءة منذ زمن . كان بيتي في يوم مـا مملوءاً بالكتب نصف المقروءة . وهـذا امر يثير الاشمئزاز تماماً ، كأولئك الناس الذين يقتطعون جزءاً من الكتب ويلقون بالباقي . على كل حال ، فلم اعد احتمل شيئاً غير الاعترافـات ، بيد ان مؤلفي كتب الاعترافات يكتبون بطريقة خاصة ليتجنبوا الاعتراف، لكي لا يقولوا مـا يعرفونه . وحين يدعون بانهم قد وصلوا الى الاقرار المؤلم ، عليك ان تكون حذرا ، لانهم يبدأون بتغطية الجثة . صدقني، فانني اعرف ما اتحدث عنه . وهكذا فقد وضعت حـداً لذلك . لا مزيد من الكتب . ولا مزيد من الاشياء التي لا تجدي . الحاجـات الضرورية فقط ، نظيفة براقـة كالتابوت . ثم ان هذه المفارش الهولندية الخشنة التي لا تشوه بياض اغطيتها البقع – يموت المرء فيها وكأنه مكفن مقدماً ، يلفعه الطهر .

انت متلهف الى سماع شيء عن تجاربي البابوية ؟ لا شيء غير عادي كما تعرف . هل تتيسر لي القوة لكي اخبرك بها ؟ اجل ، ان الحمى تهبط . لقد كان ذلك منذ زمن بعيد . كان ذلك في افريقيـا حيث كانت الحرب مندلعة ، بفضل روميل معين . ولم اكن مشتركاً فيها ، كلا ، لا تقلق . فقد كنت تملصت من تلك الحرب التي كانت قائمة في اوروبا . تم تجنيدي طبعـاً ، ولكنني لم اشترك في العمليات ابداً ، وانني آسف لذلك نوعاً ما . ربما كان ذلك سيغير اشياء كثيرة ؟ لم يكن الجيش الفرنسي في حاجة إليّ في الجبهة ، وانما طلب مني فقط

ان اشترك في الانسحاب . وبعد ذلك بفترة قصيرة عدت الى باريس ، والالمان . واغرتني المقاومة التي بدأ النـــاس يتحدثون عنها في الوقت الذي اكتشفت فيه انني كنت وطنيـاً . انت تبتسم ؟ انك مخطىء ، فقد اكتشفت ذلك على الرصيف في النفق ، في محطة شاتليه . وكان هنالك كلب قد ضل طريقه في الممرات . وكان كبيراً ، سلكي الشعر ، ترتفع احدى اذنيه كعرف الديك ، وتضحك عينـــاه ، ويقفز ويشم السيقان المارة بقربه . وانا اميل الى الكلاب ميلاً مخلصـــاً منذ زمن بعيد . احب الكلاب لانها تغتفر دائمـاً . وقد دعوت هذا الكلب ، الذي تردد ولكنه استسلم ، ومضى يحرك ذيله بحماسة وهـــو يسبقني ببضع خطوات . وفي تلك الاثناء مر بجانبي جندي الماني شاب كان يمشي بنشاط . وحين بلغ الكلب راح يداعب شعره الكث . ولم يتردد الكلب ، وانما انطلق بمثل سرعة الجندي الالمـاني واختفى معه . ولاح لي من الاستياء والغضب اللذين شعرت بهما نحو الجندي الالمـــاني ان رد الفعل الذي حدث في نفسي كان وطنيـــاً . فلو كان الكلب قد تبع مدنياً فرنسياً ، فلم اكن لافكر في ذلك قط ، ولكنني بعكس ذلك تصورت ذلك الكلب الودود وهم يتخذونـــه تعويذة خير في معسكر الماني . واغضبني ذلك جداً ، وهكذا اقنعني ذلك الاختبار .

وبلغت المنطقة الجنوبية عازماً على تتبع المقـــاومة . ولكنني حين وصلت الى هنـــاك ووجدت المقاومة ، بدأت اتردد ، ورأيت الامر جنونياً ، وبعبارة اخرى ، رومانتيكيا . اعتقد بصورة خاصة ان العمليات السرية لم تكن تناسب طبيعتي ولا ميلي الى الاعالي المكشوفة . ولاح لي انه قد طلب مني ان اقوم بالنسج في سرداب اياماً وليالي بكاملها

حتى يـأتي بعض المتوحشين ليخرجوني من مخبئي ، ويخرجوا نسيجي ثم يضعوني في سرداب آخر ليضربوني حتى الموت . ولقد اعجبت باولئـك الذين كانوا يمـــارسون البطولة في الاعماق ، ولكنني لم استطع ان افعل مثلهم .

وهكذا ، فقد عبرت الى شمال افريقيا ، وفي نيتي بصورة غـامضة ان اصل الى لندن . ولكن الموقف لم يكن واضحاً في افريقيا ، ولاح لي ان الجهات المعارضة كانت على حق ايضاً ، فبقيت مبتعداً عن الامور . يمكنني ان ارى من ملامحك انني اتحدث بسرعة متخطياً في رأيـك التفاصيل التي تتصف بمغزى معين . حسناً ، لنقل انني بعد ان حكمت عليك بقيمتك الحقيقية ، فقد تخطيت تلك التفاصيل لكي تلاحظها بصورة افضـــل . وعلى اى حال ، فقد وصلت الى تونس حيث وجدت لي صديقة لطيفة عملا ، وكانت تلك الصديقة امرأة ذكية لها علاقة بالسينما ، وتبعتها الى تونس ، ولم اكتشف عملها الحقيقي حتى كان نزول الحلفاء في الجزائر ، فقد قبض الالمان عليها في ذلـــك اليوم وقبضوا علي ايضاً ، ولكن بدون ان يتقصدوا ذلك . ولم اعرف ما حل بها ، اما بالنسبة لي فلم يلحقوا بي اي اذى . وادركت بعد عذاب طويل ان ذلـك كان اجراء حتمته متطلبات الامن . وسجنت قرب طرابلس في معسكر كنا فيه نعاني من العطش والبؤس اشد ممـــا كنا نعاني من الوحشية . ولن اصف ذلك لك ، فنحن ابناء منتصف القرن لانحتاج الى وصف مفصل لنتخيل مثـل هذه الاماكن . فقبـــل مائة وخمسين عاماً كان الناس يتفجرون بالعاطفة نحو البحيرات والغابات ، امـــا اليوم فاننا نتغنى بزنزانات السجون . ولهذا فساترك الامر لـك . وانت لا تحتاج الا الى

بعض التفاصيل : الحر والشمس العمودية والذباب والحاجة الى الماء .

وكان هنالـك فرنسي شاب معي كان يتميز بالايمان . اجل ، انها لحكاية خرافية حقاً ! من نوع دوغيسكلان ، اذا شئت . وكان قد عبر من فرنسا الى اسبانيا ليحارب . وقد حبسه الجنرال الكاثوليكي ، وحين رأى ان الطعام الرديء في معسكرات فرانكو كان ، اذا جاز لي ان اقول ذلك ، يحظى ببركات روما ، انبثقت في نفسه كآبة عميقة . فلاسماء افريقيا ، حيث هبط بعد ذلـك ، ولا كسل المعسكر وخموله صرفاه عن تلـك الكآبة . ولكن تأملاته ، والشمس ، غيرتاه نوعاً ما . وفي يوم من الايام ، تحت خيمة كانت تقطر كبوتقة الرصاص الذائب ، ونحن العشرة تقريباً نتنفس بصعوبة بين اسراب الذباب ، راح يـكرر تذمره وشكواه ضد الرومي ، كما سماه ، وكان قد القى الينا بنظرة وحشية ، من وجه لم يكن حليقاً عدة ايام ، وكان عـــارياً حتى منتصفه يغطي جسمه العرق ، ويضرب باصابعه على اضلاعه البـارزة . واعلن لنا عن الحاجة الى بابا جديد يعيش مع البؤساء بدلاً من ان يصلي على عرش . وقال ان ذلـك يجب ان يحدث في اقرب فرصة ممكنة . وحدق بعينين وحشيتين بينما كان يهز رأسه . وكرر : « اجـــل ، في اقرب فرصة ممكنة ! » ثم هدأ فجأة وقال بصوت خاو اننا يجب ان نختاره بيننا ، ان نتناول رجلاً كاملاً بشروره وفضائله ونقسم على الولاء له وكان الشرط الوحيد لذلك هو ان يحتفظ بمجتمع عذاباتنا حياً في نفسه وفي الاخرين . وتساءل : « من هـــو الذي يتميز بأشد النقائص بيننا ؟ » واعتبرت الامر نكتة فرفعت اصبعي ، وكنت الوحيد الذي فعل ذلك . « حسناً ، لنختر جان بابتيست . » كلا ، لم يقل ذلك فقط ، لانه قد كان لي اسم

آخر في ذلك الحين . لقد اعلن على الاقل ان ترشيح المرء لنفسه ، كما كنت قد فعلت ، يدل مقدماً على تمتعي باشد الفضائل ، واقترح انتخابي. ووافق الاخرون ، ضاحكين ، ولكن كان في الامر شيء من الجدية مع ذلك . ويلوح لي انني شخصياً لم اكن اضحك تماماً . والحقيقة هي ان دوغيسكلان كان قد اثر علينا . لقد اعتبرت ، اولاً ، ان نبيّي الصغير كان على حق ، ثم ، بسبب الشمس والعمل المضني ، والكفاح من اجل الماء ، لم يكن امامنا مجال للسخرية . وعلى اي حال ، فقد مارست بابويتي عدة اسابيع ، بجدية متزايدة .

مما كانت تتألف ؟ حسناً ، لقد كنت مثل قائد جماعة ، او سكرتير خلية . واعتاد الاخرون ، على اي حال ، وحتى اولئك الذين كان ينقصهم الايمان ، على طاعتي . وكان دوغيسكلان يعاني ، وكنت اعالج معاناته . ثم اكتشفت بعد ذلك ان البابوية ليست امراً سهلاً ، وقد تذكرت هذا بالامس بعد ان القيت عليك محاضرة في احتقار اخواننا . وكانت المشكلة الكبيرة في المعسكر تتمثل في توزيع الماء . وتألفت جماعات اخرى ، سياسية وطائفية ، وانضم كل معتقل الى الجماعة التي كان يفضلها . وكانت النتيجة هي انني فضلت جماعتي ، وكان هذا اول تنازل . وحتى فيما بيننا لم يكن في وسعي ان احافظ على المساواة ، وبالنسبة لحالة رفاقي ، او العمل الذي كان عليهم ان يقوموا به ، كنت امنح ميزة ما لهذا او لذلك . ومثل هذه الامتيازات ذات تأثير بعيد ، ويمكنك ان تثق بكلمتي . بيد انني متعب ، ولست اريد ان اتحدث عن تلك الفترة بالتأكيد . دعنا فقط نقل انني اغلقت الحلقة في اليوم الذي شربت فيه ماء رفيقي كان يموت . كلا ، كلا ،

لم يكن دوغيسكلان ، لانه كان قد مات فعلاً ، كما اعتقد ، لانه قلل حصته اكثر مما يجب . ثم انه لو كان حياً ، فان حبي له كان سيجعلني اقاوم الاغراء فترة اطول ، لانني كنت احبه - اجل ، كنت احبه ، او ان الامر يلوح لي كذلـك . ولكنني شربت الماء ، وهذا ثابت ، بينما كنت اقنع نفسي بان الاخرين لم يكونوا ليحتـــاجوا اليه اكثر من حاجة هذا الزميـــل الذي كان في طريقـه الى الموت على كل حال ، بالاضافة الى انـــه كان من واجبي ان احتفظ بنفسي حياً من اجلهم . وهكذا ، يا عزيزي ، تولد الامبراطوريات والكنائس تحت شمس الموت، ولكي اصحح نوعاً ما ما قلته بالامس ، فسأخبرك بالفكرة العظيمة التي خطرت لي بينما كنت اقول كل هذا ، والتي - ربما لا اكون متأكداً - قد اكون عشتها او حلمت بها فقط . فكرتي العظيمة هي ان المرء يجب ان يغتفر للبابا . فهو ، اولاً ، بحاجة الى ذلك اكثر من الاخرين . ثم ان هـــذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع المرء ان يضع نفسه فيها فوق مستواه ...

هل اغلقت الباب جيداً ؟ أجل ؟ تأكد ، رجاء . سامحني ، فلدي عقدة نفسية بشأن المزاليج . ويجب علي ان انهض من الفراش في كل ليلة لاتـأكد ، اذ لا يستطيع المرء ان يثق من كل شيء كما اخبرتك . لا تظن ان هذا القلق بشأن المزلاج هو رد فعل مالك خائف . فلم اكن في المـاضي لاغلق شقتي او سيارتي . ولم اقفل بابـــاً على نفسي ، ولم اتمسك بما كنت املكه . والحقيقـة هي انني كنت اخجل من ملكيتي لأي شيء . ألم أبدِ دهشتي الصادقة في بعض الاحيان ، أثناء ملاحظاتي الاجتماعية ، قائلاً : « الملكية ، ايها السادة ، هي قتل ! » ولمـــا لم

اكن واسع القلب بحيث يمكنني ان اشارك في ثورتي رجلا بائساً يستحق ذلك ، فقد تركتها عرضة لغزوات اللصوص المحتملة ، آملاً بهذا ان اصحح الظلم بالصدفة واكثر من ذلك ، فانا لا املك شيئاً اليوم . وهكذا فلست قلقاً بشأن سلامتي ، وانما بشأن بنفسي وحضور ذهني . وانا ايضاً متلهف الى اغلاق باب الكون الصغير المقفل الذي انا مليكه، والبابا فيه ، والحاكم .

على فكرة ، أرجوك ان تفتح ذلك الدولاب . اجل ، انظر الى تلك اللوحة . الم تميز شيئاً فيها ؟ انها « القضاة العادلون » . الا يجعلك هذا تقفز ؟ ايمكن ان تكون في ثقافتك ثغرات ؟ ومع ذلك فاذا قرأت الصحف فستتذكر السرقة التي حدثت في عام ١٩٣٤ ، في كاتدرائية سانت بافون في غنت ، اذ سرقت لوحة مشهورة من لوحات فان آيك كانت معلقة في المذبح . « عبادة الحمل » . وقد سميت تلك اللوحة « القضاة العادلون » . وكانت تمثل قضاة على ظهور الخيل آتين لعبادة الحيوان المقدس . وقد وضعت مكانها نسخة ثانية رائعة ، لانه لم يتم العثور على الاصلية ابداً . حسناً ، ها هي . كلا ، ليست لي اية علاقة بها ، واحد ممن يرتادون حانة مدينة المكسيك – لقد رأيته في ذلك المساء – باعها الى القرد مقابل قنينة ، ذات مساء سكران . وقد نصحت صديقنا اولاً بأن يعلقها في مكان بارز ، ولوقت طويل ، بينما كانوا يبحثون عنها في انحاء العالم ، كان قضاتنا الصالحون يجلسون على عرشهم في حانة مدينة المكسيك ، فوق رؤوس السكيرين والقوادين . ثم وضعها القرد ، بطلب مني ، هنا ، في عهدتي . وقد عارض قليلاً ، ولكنه خاف حين شرحت له الامر . ومنذ ذلك الحين فان هؤلاء

القضـــاة المحترمين هم صحبتي الوحيـدة . وقد رأيت في حانة مدينة المكسيك ، فوق البار ، اي فراغ خلفوا .

لـماذا لم اعد اللوحة ؟ آه ! آه ! لديك انعكاسات رجل بوليس ، لديك ذلك حقاً ! حسناً ، ساجيبك بما كنت سأجيب به حاكم التحقيق ، اذا كان سيخطر ببال احد ان هذه اللوحة انتهت الى غرفتي . اولاً ، لانها لا تعود إلي وانما الى مالك حانة مدينة المكسيك الذي يستحقهـا بقدر استحقاق اسقف غنت لهـا . وثانيـــاً ، لان جميع اولئك الذين يجتمعون حول لوحة « عبادة الحمل » لم يلاحظوا انهـــا نسخة زائفة ، وهكذا فليس في ذلك اساءة الى احد . وثالثاً ، لانني استطيع ان اسيطر بهذه الطريقة . انهم يعرضون امام اعجاب العالم قضاة مزيفين ، بينما انا وحدي اعرف القضاة الحقيقيين . ورابعاً ، لانني استطيع بهذا ان احصل على فرصة لاذهب الى السجن – فكرة خلابة على كل حال . وخامساً ، لان هؤلاء القضاة هم في طريقهم لملاقـاة الحمل ، لانه لم يعد هنالك حمل ولا براءة ، ولان النذل البارع الذي سرق اللوحة كان اداة في يد العدالة الخفية التي يجب الا يقف احد في طريقها . واخيراً ، لان كل شيء يصبح متوافقاً بهذه الطريقة . اذ تنفصل العدالة نهائياً عن البراءة – الاخيرة على الصليب والاولى في الدولاب – وينفتح الطريـق امامي لاعمل وفق معتقداتي . ويمكنني بضمير مرتاح ان امـارس المهنة الصعبة ، مهنة القاضي التائب التي رفعت نفسي اليهـا ، بعد كل تلك الآمال المخيبة والمتناقضات ، والآن قد حان الوقت ، ما دمت ستغادر ، لكي اخبرك بما اعنيه بهذه المهنة .

اسمح لي اولاً بان اجلس معتدلاً لكي يكون في وسعي ان اتنفس

بسهولة اكثر . أوه ، كم انا ضعيف ! احبس قضاتي ، رجاء . اما بالنسبة لمهنة القاضي التائب فانني امارسها الآن . ان مركز دائرتي هو في حانة مدينة المكسيك عادة . ولكن المهن الحقيقية تتم وراء مكان العمل . حتى في الفراش ، حتى مع الحمى ، تجدني اعمل . ثم ان المرء لا يمارس هذه المهنة ، وانما يتنفسها دائماً . ولا تظن انني تحدثت اليك بهذا التفصيل مدة خمسة ايام لكي نمرح فقط . كلا ، لقد كنت اتحدث متثراً مرحاً بصورة كافية في الماضي . اما الآن فان لكلماتي هدفاً . ان هدفها هو ان تسكت الضحك ، وتتجنب الحكم شخصياً ، رغم انه ليس هنالك مهرب واضح . اليس كوننا اول من يتهم انفسنا هو اعظم شيء يقف في طريق خلاصنا من ذلك ؟ وهكذا ، فمن الضروري ان نبدأ بتوسيع الاتهام حتى يشمل الجميع ، بدون تمييز ، لكي نقلل منه منذ البداية .

لا اعذار هنالك البتة لاي احد ، وهذا هو مبدئي الاول . انني انكر النية الخيرة ، والخطأ المحترم ، وقلة الحصافة ، والظروف المخففة . ولست لامنح تطهيراً او بركة . كل شيء يتم احصاؤه ، ثم : « بلغ الامر هذا القدر . انت شرير ، نصف انسان نصف وحش ، كذاب اصيل ، تجامع الغلمان ، فنان ، الخ. » هكذا . بتلك الصراحة . وفي الفلسفة كما في السياسة ، اقف بجانب كل نظرية ترفض ان تهب الانسان البراءة ، واقف بجانب كل نظام يعامله باعتباره مذنباً . انت ترى فيّ ، ايها العزيز جداً ، محامياً مثقفاً من محامي العبودية .

والحق انه بدون العبودية لا يمكن ان يوجد حل نهائي . وقد ادركت ذلك سريعاً . وكنت ذات يوم اتحدث عن الحرية دائماً . كنت

اضعها عند الافطار على خبزي المحمص وامضغها طيلة النهـار ، وكانت انفاسي تعبق بالحرية مع الاخرين . وبتلك الكلمة السحرية كنت افوز على كل من كان يعارضني ، وقد جعلتها تخدم اغراضي وشهواتي وقوتي . وكنت اهمس بها في الفراش في آذان شريكاتي فيه ، ممـــا ساعدني على التخلي عنهن . وكنت ادعها تنساب .... تشك ! تشك ! لقد بدأت اتأثر واضيع اطراف الحديث المعقول . ولكنني كنت في بعض الاحيان استخدم الحرية استخداماً اشد ابتعاداً عـــن المصلحة الخاصة وحتى — تصور سذاجتي فقط — انني دافعت عنها مرتين او ثلاثا دون ان اذهب الى حد الموت في سبيلها طبعاً ، ومع ذلـــك فقد كنت اقوم ببعض المجازفات . يجب ان تغتفر لي مثـــل هذه الافعال الحمقاء ، فلم اكن اعرف ما كنت افعل . لم اكن اعرف ان الحرية ليست جائزة او وساماً يمكن الاحتفـال به بالشمبانيا . وليست هدية ، او صندوقاً من الحلويات التي تجعلك تزدرد لعابـــك . اوه ، كلا ! انها ، بالعكس ، متـــاعب ، وسباق طويل المدى ، يشترك فيه المرء وحيداً ، مستنفد القوة . لا شمبانيا ، ولا اصدقاء يرفعون اقداحهم بينما هم ينظرون اليك بود . عليـك ان تكون وحدك في غرفة كئيبة ، وحدك في قفص الاتهام امام القضاة ، ووحدك لتقرر امام نفسك او امام حكم الاخرين . وفي نهاية كل ذلك تكون الحرية حكم المحكمة ، ولهذا فان الحرية لا تحتمل ، خاصة حين تسقط صريع الحمى ، او تكون شقياً ، او حين لا تحب احداً .

آه ، يا عزيزي ، ان عبء الايام مخيف بالنسبة لمن هـــو وحيد ، بدون اله ، بدون سيد ، ولهذا يجب على المرء ان يختار سيداً ، الهـا

بدون مميزاته المألوفة . ثم ان تلك الكلمة قد فقدت معناها ، ولم تعد تستحق ان يجـازف المرء بصدم احد بها . خذ فلاسفتنا الاخلاقيين ، مثلا ، الذين يغرقون في الجديـة ، ويحبون جارهم كثيراً كما يحبون الاخرين – لا شيء يميزهم عـن المسيحيين ، عدا انهم لا يعظون في الكنائس . فما هو سبب عدم تحولهم ، في رأيك ؟ الاحترام ، ربمـا احترامهم البشر ، اجل ، الاحترام الانساني . انهم لا يريدون ان يثيروا فضيحة ، ولهذا فانهم يحتفظون بمشاعرهم لانفسهم . مثلا ، كنت اعرف قاصا ملحدا كان يصلي كل ليلة . ولكن هذا لم يمنع شيئاً : فكم تحدث ضد الله في كتبه ! اي هجوم ، قد يعجب البعض !! وقد رفع مفكر حر تحدثت اليه عن ذلك يديه – بدون اي قصد سيء ، اؤكد لك – الى السماء وتأوه قائلاً : « انك لا تحدثني عن شيء جديد ، انهم جميعاً كذلك . » انه يعتقد ان ثمانين بالمـائة من كتابنا ومؤلفينا سيكتبون مدائحهم لله ، لو قيض لهم ان يفعلوا ذلك دون ان يذكروا اسماءهم . ولكنهم يذكرون اسماءهم لانهم ، كما يقول ، يحبون انفسهم ، وهم لا يتمدحون شيئاً لانهم يشمئزون من انفسهم ، ولمـا لم يكن في وسعهم ، مع ذلك ، ان يمنعوا انفسهم من اصدار الحكم ، فانهم يعوضون عن ذلك بالقاء المواعظ . باختصار ، ان شيطانيتهم فاضلة . فترة غريبة ، حقاً ! ولا يدهشني ابداً ان الاذهـان مرتبكة ، وان احد اصدقائي ، وكان ملحداً حين كان زوجاً مثـالياً نموذجياً ، انقلب الى الايمان حين اصبح فاسقاً !

آه ، اولئك المحتالون الصغـار ، الممثلون المسرحيون ، المنافقون – ومع ذلك فانهم يثيرون العطف ! صدقني انهم جميعاً كذلك حتى حين

يحرقون السماء . فاذا كانوا ملحدين او من رواد الكنائس ، من سكان موسكو او من سكان بوسطن ، فانهم جميعاً مسيحيون ابا عن جد . ولكن يحدث انه ليس هنالك أب ، ولا حكم ! انهم احرار ، ولذلك فيجب ان يدبروا امور انفسهم ، وما داموا لا يريدون الحرية ولا احكامها ، فانهم يطلبون ان تضربهم على ركبهم ، وهم يخترعون القواعد المرعبة ، ويهرعون الى بناء اكوام من القصب بدلاً من الكنائس . مصلحون شهداء مثل سافونارولا ، حقاً . ولكنهم يؤمنون بالخطيئة فقط ، ولا يؤمنون بالنقاء ابداً . انهم يفكرون في النقاء ، حقا . النقاء هو ما يطلبونه — القبول ، والاستسلام ، والسعادة ، وربما ، لانهم عاطفيون ايضاً ، الخطبة ، والعروس العذراء ، والرجل المستقيم ، وموسيقى الارغن . خذني انا ، مثلا ، وانا لست عاطفياً — اتعرف بم كنت احلم ؟ الحب الكامل للقلب والجسد باكملها ، ليلاً ونهاراً ، في عناق لا ينتهي ، المتعة الحسية والاستثارة الذهنية — ليستمر ذلك كله خمس سنوات وينتهي بالموت . يا للتعاسة !

وهكذا ، وبسبب عدم وجود خطبة او حب غير منقطع ، فان الامر يكون زواجا ، زواجاً وحشياً ، مع القوة والسوط . والامر الجوهري هو ان كل شيء يجب ان يكون بسيطاً ، كما يكون بالنسبة للطفل ، وان كل شيء يجب ان يكون منظما ، وان الخير والشر يجب ان يشار اليهما بصورة عرفية ، اي بوضوح . وانا اوافق على ذلك ، مهما كنت صقليا او جاويا ، وحتى لو لم اكن مسيحياً على الاطلاق ، رغم انني اشعر بالصداقة نحو اول المسيحيين . ولكنني عرفت على جسور باريس انني ، انا ايضاً ، كنت اخشى الحرية . وهكذا فهيا

الى السيد ، مهما يكن ، ليحل محل قانون السماء . « ابانا يا من انت هنا مؤقتا ... مرشدينا ، سادتنا القساة قسوة بديعة ، آه ، ايها القادة القساة المحبوبين ... » باختصار ، انت ترى ان المسألة الجوهرية هي الا نكون احرارا وان نطيع تائبين من هو اشد نذالة منا . وحين نكون مذنبين جميعنا ، فان ذلك سيكون ديمقراطية . دون ان نذكر ، يا صديقي العزيز ، اننا يجب ان ننتقم لاضطرارنا الى الموت وحيدين . الموت توحد ، بينما ان العبودية جماعية . فالاخرون يحصلون على نصيبهم ، ايضاً ، في الوقت نفسه الذي نفعل فيه ذلك — وهذا هو المهم . نجتمع اخيراً ، ولكن على ركبنا ، ونحن نحني رؤوسنا .

اليس افضل كذلك ان نعيش كالاخرين في العالم ، وكذلك ، اليس من الواجب على بقية العالم ان تكون مثلي ؟ ان التهديد والسمعة السيئة والبوليس هي الروادع التي توجب ذلك التشابه . وحين اكون محتقراً ، واقعاً في الفخ ، مضطراً ، فسيكون في وسعي ان اكشف عن قيمتي ، واستمتع بما انا هو ، واكون طبيعياً اخيرا . ولهذا ، ايها العزيز جداً ، وبعد ان قدمت احتراماتي الى الحرية بكل وقار ، فقد قررت انني يجب ان اسلمها لاي شخص ياتي في الطريق . وانا اعظ في كنيستي في حانة مدينة المكسيك بقدر وسعي . وادعو الناس الطيبين ليطيعوا السلطة ولينصاعوا بخضوع لراحة العبودية ، حتى اذا كان علي ان اقدمها اليهم باعتبارها الحرية الحقيقية .

ولكنني لست سخيفاً ، انني ادرك تماماً ان العبودية لا تتحقق مباشرة . انها ستكون من بركات المستقبل . وهذا هو كل شيء . اما في الوقت الحاضر فعلي ان احتمل هذا الحاضر وأجد حلاً مؤقتاً على

الاقل . ولهذا فيجب علي ان اجد وسيلة اخرى لتوسيع الحكم حتى يشمل الجميع لكي اجعله اخف عبئاً على عاتقي . لقد وجدت الوسيلة افتح النافذة قليلاً ، ارجوك . ان الجو حار جداً . ليس كثيراً ، لانني اشعر بالبرد ايضاً . ان فكرتي بسيطة ومثمرة معاً . كيف يمكن اشراك الجميع لكي يكون لي الحق في ان اجلس مرتاحاً في الخارج ؟ أيجب علي ان اصعد الى المنبر ؟ كالكثيرين من معاصريّ المشهورين ، وألعن الانسانية ؟ ذلك خطر جداً ! ذات يوم ، او ذات ليلة ، ينبثق الضحك دون سابق انذار . ويعود الحكم الذي تصدره على الآخرين ليصفع وجهك ، محدثاً بعض الاذى . ثم ماذا ؟ انك تسألني . حسناً ، هنا النبوغ ، لقد اكتشفت اننا بينما نكون بانتظار السادة الذين يحملون قضبانهم ، يجب علينا ، مثل كوبرنيكوس ، ان نعكس الامور لنكسب ، وبقدر عجز المرء عن اتهام الآخرين بدون ان يكون في ذلك حكم مباشر على نفسه ، فان عليه ان يخضع نفسه ليكون له حق الحكم على الآخرين . وبقدر كون كل قاض سينتهي به الامر يوماً الى ان يكون تائباً ، فعليه ان يقطع الطريق في الاتجاه المعاكس ويمارس مهنة التوبة ليكون في وسعه ان ينتهي الى القضاء . هل تتتبع ما اقول ؟ حسناً . ولكن ، لكي اوضح ما اريد ، سأخبرك بكيفية العمل .

لقد اغلقت دائرتي القانونية اولاً ، وغادرت باريس ، وسافرت . وهدفت الى الاستقرار تحت اسمي الجديد في مكان ما تتوفر لي فيه ممارسة المهنة . هنالك اماكن عديدة في العالم ، ولكن الصدفة والسهولة والسخرية ، وكذلك الحاجة الى ذلة معينة ، جعلتني اختار عاصمة المياه والضباب ، التي تملأها القنوات وتزدحم بالناس ، وتزورها اقوام

من كل زوايا الارض . وأقمت دائرتي في حانة في حي البحارة . ان الزبائن الذين تجدهم في مدينة الميناء يكونون متنوعـــين . فالفقراء لا يذهبون الى المناطق المترفة ، في حين ان الناس الكرام يذهبون دائماً ، بل مرة واحدة على الاقل ، كما رأيت بنفسك ، الى الاماكن المشبوهة . انني انتظر البورجوازيين على الاخص ، البورجوازيين الضالين ، لانني احصل معهم على افضل النتائج وكالفنان الموهوب الذي يعزف على آلة كمان نادرة ، استطيع ان اخرج منهم بأدق الاصوات .

وهكذا فقد مارست مهنتي المفيدة في حانة مدينة المكسيك فـترة من الزمن . انها تتألف ، اولاً ، كما تعرف من التجربة ، من الاغراق في الاعتراف للآخرين قدر استطاعتي . انني اتهم نفسي طولاً وعرضاً . وليس ذلك بالأمر الصعب ، لانه قد توفرت لي ذاكرة الآن . ولكن دعني اذكر لك انني لا اتهم نفسي اتهامـــاً عـادياً ، ولا اضرب على صدري . كلا ، انني اجر بمهـارة ، مضاعفاً مـــن وضوح الموضوع وشذوذه ايضاً – باختصار ، انني اكيّف كلماتي وفقـــاً للمستمع ، واجعله يراني بصورة افضل . وأنا امزج ما يخصني بمـا يخص الآخرين واختار النواحي المشتركة بيننا ، والتجارب التي عانيناها والنقائص التي نتميز بها – بعبارة اخرى ، رجل الساعة كما يتضـح في شخصي وفي الآخرين . وبكل ذلك ارسم لوحة هي صورة الجميع ، وليست صورة فرد بالذات . قناع ، باختصار ، كأقنعة الكرنفالات التي هي كوجوه الناس في الحياة ، وتتميز عنهم في الوقت نفسه ، بحيث انها تجعل المرء يقول : « لماذا ؟ بل لا بد انني كنت قد قابلته في مـــكان ما ! » وحين تنتهي الصورة ، كما انتهت في هذا المساء ، فانني اعرضها بأسف

شديد : « هذا ، يا للتعاسة ، هو أنا ! » وينتهي اتهام المدعي العام . وفي الوقت نفسه فان الصورة التي اعرضها على معاصريّ تصبح مرآة .

انني اقف ، مغطى بالرماد ، انتف شعري ، وتمزق وجهي المخالب ، ولكن بعينين نافذتين امام البشرية كلها ، اعيد على مسامعها فضائحي بدون ان احول بصري عن التأثير الذي احدثه ، واقول : « لقد كنت أحقَرَ الجميع . » ثم اتحول من « انا » الى « نحن » ، دون ان اجعل احداً يدرك ذلك . وحين اصل الى : « وهكذا نحن » ، اكون قد اتممت اللعبة ، وبذلك ابعدهم عني . انني مثلهم حقاً ، ونحن في الحساء معاً . ومع ذلك ، فلدي تفوق يكمن في انني اعرف ذلك ، وهذا يمنحني الحق في الكلام . انت ترى ميزتي بلا شك ، فكلما اكثرت من اتهام نفسي ، زاد حقي في اتهامك . بل اكثر من ذلك انني استفزك الى اتهام نفسك ، وهذا يحررني من بعض العبء . آه ، يا عزيزي ، نحن مخلوقات غريبة بائسة ، واذا كنا سننظر الى ماضي حياتنا فقط ، فلن نعدم المناسبات التي تدهشنا وترعبنا . حاول فقط ، وسأستمع حقاً الى اعترافك بشعور اخوي عظيم .

لا تضحك ! أجل ، انك زبون صعب . لقد عرفت ذلك في الحال . ولكنك ستصل الى ذلك حتماً . الآخرون معظمهم اكثر عاطفية من كونهم اذكياء ، وهم يستبسلمون في الحال ، اما مع الاذكياء ، فان الامر يستغرق زمناً . يكفي ان اشرح لهم الطريقة بصورة كاملة . انهم لن ينسوها ، وانما سيتأملون فيها . وهم سرعان ما يستسلمون ، معتبرين نصف الامر لعبة ، بينما يكون نصفه الآخر اضطراباً عاطفياً . ويقولون كل شيء . وانت لست ذكياً وحسب ، وانما تلوح معتاداً .

اتعترف ، على كل حال ، بانك تلوح اليوم اقل ارتياحاً من نفسك مما كنت عليه قبل خمسة ايام ؟ والآن فسانتظر منك ان تكتب لي او تعود اليّ . لانك ستعود ، انا واثق من ذلك ! وستجدني على حالي ، بدون تغيير . ولماذا اتغير ؟ ما دمت قد عثرت على السعادة التي تناسبني ؟ لقد قبلت الازدواج بدلاً من ان اضطرب بشأن ذلك . بالعكس ، لقد استقر الامر بي على الازدواج ، وعثرت فيه على الراحة التي كنت ابحث عنها في حياتي ، لقد كنت مخطئاً حين اخبرتك بان الامر الجوهري هو تجنب الحكم . الامر الجوهري هو ان يكون المرء قادراً على السماح لنفسه بكل شيء ، حتى اذا كان عليه من وقت لآخر ان يعترف بفضائحه بصوت عال . انني اسمح لنفسي بكل شيء ثانية ، وفي هذه المرة ، بدون الضحك . لقد غيرت طريقي في الحياة ، وقد عدت الى حب نفسي والاستفادة من الآخرين . وانما يجعلني اعترافي بجرائمي ابدأ ثانية ، اخف قلباً فاذوق متعة مزدوجة ، اولاً بطبيعتي ، وثانياً بتوبتي الساحرة .

ومنذ ان وجدت الحل ، صرت استسلم لكل شيء ، للنساء ، للفخر ، للسأم ، للاستياء ، وحتى للحمى التي اشعر بها تسيطر علي سيطرة ممتعة في هذه اللحظة . فقد سيطرتُ في النهاية ، ولكن الى الابد . لقد عثرت مرة اخرى على ارتفاع كنت الوحيد الذي تسلقه ، ويمكنني منه ان احكم على الجميع ، وفي الفترات الطويلة ، في ليلة جميلة حقاً ، اسمع احياناً ضحكة بعيدة ، فاشك ثانية . ولكنني اسحق كل شيء سريعاً ، الناس والاشياء ، تحت عبء ترددي ، وانطلق الى اعلى في الحال . وهكذا فسأنتظر احتراماتك في حانة مدينة المكسيك زمناً

كافياً . ولكن ابعد هذا الغطاء ، انني اريد ان اتنفس . ستأتي ، اليس كذلك ؟ سأريك تفاصيل طريقتي ، لانني اشعر بالود نحوك . ستراني اعلمهم ليلة بعد ليلة انهم اشرار . وفي هذا المساء ساستمر . انني لا استطيع الاستغناء عن ذلك ولا استطيع ان احرم نفسي من تلك اللحظات التي ينهار فيها احدهم بمساعدة الكحول ، ويضرب على صدره . ثم ازداد طولاً ، ايها العزيز جداً ، ازداد طولاً واتنفس بحرية ، لانني فوق الجبل ، ويمتد السهل امام عيني . كم هو مسكر ان يشعر المرء وكأنه الله الاب ، وان يعطي شهادات نهائية بالطبائع والعادات السيئة . انني اجلس على عرش بين الملائكة السيئين في قمة السماء الهولندية واراقبها وهي تصعد نحوي ، خارجة من الضباب والماء ، حشود القيامة ! انها ترتفع ببطء وانا ارى طلائعها ، وها هو اول القادمين ، انني ارى وجهه الحائر الذي يخفي نصفه بيده كآبة الحالة العامة واليأس من القدرة على الخلاص منها . اما بالنسبة لي ، فانني اشفق بدون ان امنح الطهر ، واتهم بدون ان اغتفر ، وفوق ذلك كله ، فانني اشعر اخيراً بانني معبود !

اجل ، انني اتحرك . كيف كنت سابقى في الفراش كالمريض الطيب ؟ يجب ان اكون اعلى منك ، وافكاري ترفعني . في مثل هذه الليالي ، او الصباح (لان السقطة تحدث في الفجر) اخرج واتمشى بنشاط على طول القنوات ، وتصبح طبقات الريش في السماء الباهتة اخف ، وتصعد الحمائم قليلاً الى الاعلى ، ويعلن نور وردي فوق السطوح يوماً جديداً من صنعي . ويقرع جرس اول عربة ترام في شارع دامراك ، في الهواء الرطب ، معلناً يقظة الحياة في طرف اوروبا

هذه ، في اللحظة ذاتها التي تنزلق فيها بالم مئات الملايين من رعاياي من الفراش ، والمذاق المر في افواههـــا ، لتذهب الى عمل لا متعة فيه . وبعد ذلك احلق فوق هذه القارة كلها التي هي تحت سيطرتي دون ان تعرف ذلك ، وأشرب النور المتألق الذي ينثره النهار ، سكرانـــاً بالكلمات الشريرة ، واكون سعيداً – اقول لك انني سعيد ولن ادعك تعتقــد انني لست سعيداً . انني سعيد حتى الموت ! أوه ، الشمس ، المصاطب ، والجزر التي هي في طريق الرياح التجارية ، والشباب الذي تدفع ذكراه بالمرء الى اليأس !

سأعود الى الفراش ، سامحني . اخشى ان اكون مستنزفاً ، ومــع ذلك فلست ابكي . ان المرء ليتساءل احياناً متشككاً في الحقائق حتى حين يكون قد اكتشف اسرار الحياة الطيبة . ان حلي ليس الحـــل المثـــالي حقــاً . ولكنك حين لا تحب حياتك ، وحين تعرف انك يجب ان تستبدلها بحياة اخرى ، لا يكون امامك اي اختيار ، اليس كذلك ؟ ماذا يستطيع الانسان ان يفعل ليكون شخصاً آخر ؟ مستحيل . على المرء الا يكون اي شخص ، وان ينسى نفسه ويكون شخصاً آخر على الاقل . ولكن كيف ؟ لا تمل هكذا علي . انني مثـــل ذلك الشحاذ العجوز الذي لم يترك يدي في ذات يوم حين كنت في شرفـة احدى المقاهي ، اذ قال : « آه يا سيدي ، ليس لانني لست طيباً ، وانما اضعت انت طريق النور . « اجل ، لقــد اضعنا طريق النور ، والصباح ، والبراءة المقدسة التي يمتاز بها اولئك الذين يغتفرون لانفسهم..

انظر ، ان الثلج يتساقط ! أوه ، يجب ان اخرج . امستردام نائمة في الليل الابيض ، والقنوات المظلمة تحت الجسور الصغيرة المغطاة

بالثلج ، والشوارع الخالية ، وخطواتي المتعثرة — سيكون هنالك نقاء رغم كونه عابراً ، قبل وحل الغد . انظر الى الندف الكبيرة وهي تنهمر على زجاج النافذة . لا بد انها الحمائم بالتأكيد ، قررت اخيراً ان تهبط ، الحمائم الصغيرة العزيزة ، انها تغطي المياه والسطوح بطبقة كثيفة من الريش ، انها تخفق باجنحتها على كل نافذة ، اي غزو ! دعنا نأمل انها آتية بأخبار طيبة . سيخلف الجميع ? ايــه ? — وليس المختارون فقط . وسيتم اقتسام الممتلكات والمشاق ، وأنت مثلاً منذ هذا اليوم ، ستنام كل ليلة على الارض من اجلي ، لعبة الصيد كلها ، اين ? هيا ، اعترف بأنك ستندهش اذا جاءت عربة من السماء لتحملني بعيداً ، او اذا احترق الثلج فجأة . انت لا تصدق ذلك ، ولا أنا . ولكنني يجب ان اخرج .

حسناً ، حسناً ، سأهدأ . لا تنهض ، اجلس ! لا تأخذ تدفقي العاطفي او هذياني مأخذاً جدياً . انني اتحكم في ذلك . قل لي انك ستتحدث الي عن نفسك الآن . وسأكتشف هل استطعت ان احقق واحداً من اهداف اعترافي الطويل . انني في الواقع آمل دائماً ان محدثي سيكون من رجال البوليس وانه سيقبض علي بتهمة سرقة « القضاة العادلين . » اما بالنسبة للامور الاخرى — هل انا على حق ? — فلا احد يستطيع ان يقبض علي . امــا بالنسبة للسرقة ، فانها تقع ضمن نصوص القــانون ، وقد اعددت كل شيء لكي اكون شريكا في الجريمة : انني احتفظ بتلك اللوحة واريها لكل من يريد ان يراها ، ستقبض علي اذن ? ستكون هذه بداية طيبة . ربما سيكون في الوسع الاهتمام بالامور الاخرى بنتيجة ذلك . سيفصل رأسي عن جسدي ،

مثلا ، ولن اخشى الموت بعد ذلك ، وساخلص . فوق الحشد المجتمع ، سترفع رأسي الذي ما يزال دافئاً ، لكي يكون في وسعهم ان يميزوا انفسهم فيه ، واستطيع انا ايضاً ان اسيطر ثانية – مستثنى . وسيكون كل شيء تماماً ، كان علي ان اختتم سرأ مهنتي كنبي مزيف يصرخ في القفار ويرفض ان يخرج .

ولكنك لست من رجال البوليس بالطبع ، وهذا سيكون سهلاً . ماذا ؟ آه ، لقد شككت في ذلك كما ترى . كان ذلك الود الغريب الذى شعرت به نحوك في محله اذن . انت تمارس مهنة المحاماة الشريفة في باريس ؟ لقد فكرت في اننا قد نكون من جنس واحـد . ألسنا متشابهين جميعاً ، حديثنا المستمر بدون ان يكون لنـــا سامع ، وفي بحثنا الابدي عن نفس المسائل رغم اننا نعرف الجواب مقدماً ؟ ارجوك ان تخبرني اذن بما حدث لك ذات ليلة على ارصفة السين وكيف استطعت ان تفلح في عدم المجازفة بحياتك ، وانت نفسك تقول الكلمـات التي ظلت سنوات طويلة تتردد في لياليّ ، والتي سأقولهـا اخيراً عبر فمك ؟ « آه ، ايتها الشابة ، القي بنفسك الى الماء ثانية لكي تتوفر لي فرصة اخرى انقذ فيها نفسينا معاً ! » فرصة اخرى ، ايه ، اي اقـتراح ! افترض فقط ، ايها السيد العزيز ، اننا نؤخذ بما نقول حرفياً ! كان علينا ان نمضي في ذلك حتى النهاية . بررر ..! المـــاء بارد جداً ! ولكن دعنا لا نقلق ! فات الوقت الآن . وسيفوت الوقت دائمـــا . لحسن الحظ !

الكاتِب والكتاب

ألبير كامو ، مُؤَلِّف هذا الكتاب ، هُوَ أحد أناس هذا العصر . وان رَسَمَ في أبطال قِصَصِهِ صُورَةَ الضياع وَحسّ الفراغ القلق ، فَهُو لَمْ يأتِ بِشَيْءٍ مِنْ بَعِيد ، فَفِي كُلِّ مَدِينَةٍ حَدِيثَة ، وَ في كُل نَاطِحَة سَحَابٍ مِنْ إنجَازَاتِ القَرنِ العِشرِينَ يَعيشُ هَؤلاءِ الأبطَال . إنّنَا في كُلِّ بَيْتٍ يَصطَنعُ فِيهِ الأنسَانُ الأنسَانَ نُقَابِل وَنُحادِثُ أبطَال وَشخصيّات ألبير كامو .

وَانْ يَكُنِ الفِكرُ الحَدِيث قَدْ وَقَفَ مَشدُوها ذَاهِلاً أمَامَ المعضِلَاتِ الأنسَانِيّة العُظمَى التي تَعترِضُ لَهَا وَعيُ الأنسَانِ الحَدِيث ، فيكفي كَامُو أنّه لَمْ يَقِفْ هَذا الموْقِف ، حَتّى أمَامَ أشَدّ الأمُورِ لا مَعقُوليّة . فَهُوَ في العَبْثِ الفَاتِرِ افتَرَضَ الحَلّ . وَهَكَذا تجَاوَزَ اللاجَدوَى بفِكرِهِ المتَأمّل . جَاءَ بِالطمُوحِ الأنسَاني مِنْ جَدِيد مِنْ قَلبِ اليَأس ، وَغَذّى جَذوَة الحَيَاة بالنّشَاطِ في نَفسِ المجَالِ الذي ظُنّ فِيهِ خُمُودُ كل جَذْوَة تُدْفِئ في الأنسَانِ حِسّ الوجُود .

وَلَعَلّ هَذا الكِتَاب « السقطة » هُوَ أحَد أغنَى كتب كَامُو تعبيراً عَنْ فَلسَفَتِهِ هَذه في الحَيَاة .

الثمن : ٢٠٠ ق.ل.
او ٢٥٠ ق.س.

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت